جامعـــة الأزهـــــر
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
كلية معتمدة من الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد

عصمة الأنبياء في الفكر الماتريدي

" أبو علي القاري أنموذجاً "

إعداد

د. صفية محمد الهادي محمد سليم القرعيش

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات بالزقازيق

مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية العدد الثالث والأربعون، لعام ١٤٤٦هـ-
ديسمبر ٢٠٢٤م والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢٤/٦١٥٧ والترقيم الدولي
الطباعي ٢٩٧٤-٤٦٦٠ I.S.S.N و ٢٩٧٤-٤٦٧٩ The Online ISSN

عصمة الأنبياء في الفكر الماتريدي" أبو علي القاري أنموذجاً "

صفية محمد الهادي محمد سليم القرعيش

قسم العقيدة والفلسفة- كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق - جامعة الأزهر- مصر

الإيميل الجامعي: SafiaAlqareesh.2167@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

لقد اتسم منهج الماتريدية في دراسة علم الكلام بالتوسط بين العقل والنقل، وتلك أهم سمة في منهج الماتريدية العقدي، فلم يتوقفوا عند ظاهر النص، ولم يخضعوا النص للعقل كما فعل المعتزلة، وأنهم أيضاً تميزوا بعرض قضايا علم الكلام بطريقة منظمة متوازنة تكشف عن حقيقة هذا العلم. ومن أعلام الماتريدية الشيخ أبو علي القاري فهو من أبرز علماء عصره، فقيه، حنفي، صوفي، ومن علماء أهل السنة والجماعة، فقد تميز بعقلية جمعت بين القديم والحديث، وأنه تنقل كثيراً في طلب العلم، فلما انتهى من الترحال استقر بمكة المكرمة، ولازم بها العلماء سنوات طويلة، فقد اعترف كثير من العلماء بعلمه الغزير في شتى العلوم والفنون، وكان بحراً زاخراً بعلوم الشريعة، وله مؤلفات كثيرة انتشرت على ألسنة الناس ما بين مطبوع ومخطوط، ومنها شرح الفقه الأكبر، وقد اخترت التحدث عن الجانب العقدي عنده.

وبينما كنت أتابع البحث العلمي في القضايا الكلامية، بان لي أن عصمة الأنبياء في الفكر الماتريدي لها استقلال نوعي، وامتياز دراسي، ومن ثم رأيت أن يكون موضوع هذه الدراسة هو:-

" عصمة الأنبياء في الفكر الماتريدي أبو علي القاري أنموذجاً". وتتكون خطة البحث من: – مقدمة، الفصل الأول: أبو علي القاري حياته وظروف عصره. الفصل الثاني: العصمة مفهومها، وكيفيتها، ووقتها، وموضوعاتُها. الفصل الثالث: دلائل العصمة، وغاياتها. الخاتمة وتتضمن أهم النتائج وأبرز التوصيات وأهم المقترحات، والمصادر والفهرس العام.

الكلمات المفتاحية: الماتريدية، العصمة، الأنبياء، الفكر، أبو علي القاري.

The Infallibility of Prophets in Maturidi Thought: A Model of Abu Ali Al-Qari

Safia Mohammad Elhady Mohammad Seleem El-Kareich

Department of Creed and Philosophy, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Zagazig, Al-Azhar University, Egypt.
Email:- SafiaAlqareesh.٢١٦٧@azhar.edu.eg

Abstract:

The Maturidi approach in the study of theology is characterized by a balance between reason and revelation, which is a key feature of their doctrinal methodology. They did not limit themselves to the apparent meaning of texts, nor did they subordinate texts to reason as the Mu'tazilites did. Furthermore, they presented theological issues in an organized and balanced manner that reveals the essence of this science.

Among the prominent figures of Maturidism is Sheikh Abu Ali Al-Qari, one of the most distinguished scholars of his time. He was a jurist, a Hanafi, a Sufi, and a scholar of Ahl al-Sunnah wa al-Jama'ah. He possessed a mindset that combined both ancient and modern knowledge, and he traveled extensively in pursuit of knowledge. After his travels, he settled in Mecca, where he remained in the company of scholars for many years. Many scholars acknowledged his vast knowledge in various sciences and arts, and he was a rich source of religious knowledge. He authored numerous works, both published and manuscript, including his commentary on "Al-Fiqh Al-Akbar." I have chosen to discuss his doctrinal perspective.

While I was pursuing scientific research on theological issues, it became clear to me that the infallibility of prophets in

Maturidi thought has a unique independence and scholarly distinction. Thus, I decided to make the subject of this study "The Infallibility of Prophets in Maturidi Thought: A Model of Abu Ali Al-Qari". The research plan consists of Introduction

Chapter One: The Life of Abu Ali Al-Qari and the Context of His Era .Chapter Two: The Concept of Infallibility, Its Nature, Timing, and Topics

Chapter Three: The Evidence of Infallibility and Its Objectives .

Conclusion: It includes the main findings, key recommendations, and important suggestions, along with sources and a general index.

Keywords: Maturidiyyah, Infallibility, Prophets, Thought, Abu Ali al-Qari

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله جعل خدم العلم أعلاماً، وزكاهم وأعلا مآثرهم، وجعلهم بين العالمين منارات هدى، كيف لا وهم حملة العلم ورواته، وهم في ذات الوقت أهل حكمته، وتدوينه، وضبطه، وقراءته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بين فضل طالب العلم ومنزلته، كما بين فضل شيوخه وأساتذته، وذلك في آيات من الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢).

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، بين فضل العلم والعلماء في قوله ﷺ "فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ"(٣)، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وسلم، نجوم الهدى، وكاشفي دياجير الظلام.

وأرض اللهم عن آل بيته الطيبين، وأصحابه الغر الميامين، والعلماء العاملين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٢) سورة المجادلة، الآية ١١.

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم الحديث، ٢٦٨٥،ج٥، ص٥٠، تحقيق/ ابراهيم عطوة عوض، الناشر/ شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، وقال الألباني: حديث صحيح.

أما بعد

فإن الآراء الكلامية تتسم غالباً بالصراحة والوضوح، بجانب الاستدلال بالكتاب والسنة، ولذا فإن العاملين عليها يكون منهجهم في الغالب هو منهج الكتاب والسنة، وبخاصة أهل السنة والجماعة، من الأشاعرة والماتريدية.

بينما كنت أتابع البحث العلمي في القضايا الكلامية، بان لي أن عصمة الأنبياء في الفكر الماتريدي لها استقلال نوعي، وامتياز دراسي، واستقرار في عقول شيوخ المذهب وتلاميذهم، ومن ثم رأيت أن يكون موضوع هذه الدراسة هو " عصمة الأنبياء في الفكر الماتريدي أبو علي القاري أنموذجاً"، وسوف أتناول ما يلي:-

أولا: أسباب اختيار الموضوع

ما دامت الدراسات الكلامية قد استقرت على تقسيم أسباب الموضوع إلى قسمين باعتبارين مختلفين أحدهما باعتبار ذات الباحث، ويسمى الأسباب الذاتية، كما يسمى الأسباب الداخلية[1]، وثانيهما: الأسباب الخارجية، ومن أبرزها :-

أ- الأسباب الداخلية" الذاتية".

١- إن لدي ميل لدراسة المذهب الماتريدي على ناحية أشعر فيها بأني خدمت المذهب، كما خدمت مذهب الأشاعرة، حتى تتوازن الكفتان.

٢- الرغبة في استلهام روح المذهب من حيث إن ذلك يفتح باب المعرفة المتكررة، وبخاصة أن الإمام "أبي حنيفة" رحمه الله قد عاشر بعضاً من الصحابة، وكثرة من

(١) فكرة الأسباب الداخلية والخارجية، حرص عليها مفكرو المسلمين من زمن بعيد، ثم جاءت المناهجية المعاصرة واعتبرتها أحد علامات الجودة وصار الباحثون ملزمين بها، بل اعتبرها البعض ناتج المناهجية المعاصرة وليس الأمر كذلك، فمن رجع إلى تراث المسلمين الأوائل وبخاصة عصر "أبي حنيفة" وجد عبارة "نقر" سارية في كتابه الوصية من أول أمرها إلى منتهاها.

التابعين مما يجعل داخلي مشـــبعاً بروح البحث حول قضـــايا الماتريدية، وكيفية معالجتهم لها بجانب النتاجات التي توصلوا إليها، وغير ذلك كثير.

ب- الأسباب الخارجية" الموضوعية".

وأعني بها ما يتعلق بموضـــوع البحث نفســـه وهو أبو علي القاري الحنفي، ومن **أبرز ذلك ما يلي:-**

١- وقوف الشيخ على جمع كبير، مما خطه شيوخ المذهب من أولهم في القرن الثاني الهجري حتى القرن الحادي عشر، حيث وفاة الشيخ القاري.

٢- إن الوســائل التي أنصــت إليها الشـيخ القاري قد تكون مألوفة من حيث أسـمائها، لكنها غير مألوفة من ناحية اسـتدلالاتها، بالتالي فالبحث عن الجانبين من المهام التوفيقية التي يجنح إليها الباحث المنصف.

٣- إن الشـــيخ القاري تميز بعقلية جمعت بين القديم والحديث، وبالتالي فأفكاره تمثل المدرسة الماتريدية أصدق تمثيل.

٤- اتفق الدارســـون على أن الشـــيخ القاري تنقل كثيراً في طلب العلم، وهاجر طويلاً ومثله يعبر عن حركة فكرية واعية، بدليل أنه لما انتهى من الترحال اسـتقر بمكة المكرمة، واشـــتغل بمجاورة الحرم، ثم درس الفقه، والأصـــول، والتفســـير، وعني بســـماع الحديث، كما حذق في المعقول، بل برع في علوم اللغة، والبلاغة، والنحو، وصار إماماً شهيراً في ذلك كله.

ثانياً: منهجي في البحث

من المؤكد أن المنهج الذي أســـير عليه في هذا البحث هو المنهج النقدي الذي يعتمد على فحص الآراء ونقدها بميزان دقيق، لبيان الاســـتقامة في العرض والنتائج أو البعد عنها.

□

ثالثاً: أهم المشكلات البحثية

١- إن ما كتب حول القاري في الدراسات الكلامية قليل جداً، ولأسباب غير معروفة.

٢- إن الشيخ القاري كان عالماً شمولياً كثرت كتاباته وتنوعت، بحيث ما خلا علم من العلوم إلا وله فيه مساهمة، ذات ارتباط نوعي مفيد بالنسبة للمذهب الماتريدي.

٣- إن الشيخ القاري عالج الموضوعات التي تطرق إليها لا بما عرضه الإمام "أبو حنيفة" ولا المتأخرون من شيوخ المذهب، وإنما جمع المتقدم وأعاد صياغته فتوارت اجتهاداته في شروحه وتحقيقاته.

رابعاً: مكونات البحث

١- مقدمة وتتضمن أسباب اختيار الموضوع، ثم المنهج المستخدم، والمشكلات البحثية.

الفصل الأول: أبو علي القاري حياته وظروف عصره.

الفصل الثاني: العصمة مفهومها، وكيفيتها، ووقتها، وموضوعاتُها.

الفصل الثالث: دلائل العصمة، وغاياتها، ثم الخاتمة، وأهم النتائج، وأبرز التوصيات، وأهم المقترحات.

الفصل الأول: أبو علي القاري حياته وظروف عصره

تمهيد:

يعتبر الحديث عن المذهب الماتريدي من المسائل التي يتعلق بها الباحثون حول تراث أهل السنة والجماعة "جناح الماتريدية" فإذا تبين لنا أن الشيخ القاري أحد رؤوس هذا المذهب في القرن العاشر والقرن الحادي عشر، فقد بات من الضروري تقديم نبذة مركزة عن حياته، وسيكون ذلك على النحو التالي:-

أولا: الاسم.

أ- **الاسم:** قرر بعض الباحثين في التراجم والسير أن الشيخ سمي بعلي[١]، والبين أن هذه التسمية محل اتفاق بين جميع من ترجموا له[٢]، حيث لم أجد اختلافاً واحداً في تلك التسمية.

أما نسبه الممتد من أبيه إلى أجداده فقد عُرف بأنه علي بن سلطان محمد القاري الهروي[٣]، وهذا النسب أيضاً محل اتفاق.

ب- **نسبته:** انتسب الشيخ إلى أماكن كثيرة، بعضها لحقت باسمه كالهروي، وبعضها لحقت بفراسته وهو الملا علي القاري، وقد كثرت هذه النسب إليه نظراً لارتباطه

(١) عبد الملك العصامي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج٤، ص٣٩٤، المكتبة السلفية، القاهرة ١٣٧٩هـ.

(٢) الإمام/ محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج١، ص٤٤٥، وضع حواشيه/ محمد أحمد عبد العزيز سالم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

(٣) اسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، ج١، ص٧٥١، دار الفكر ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

بكثير من المعارف الإنسانية[١].

ج- كُناه: فقيل علي أبو الحسن، لكن من هو أبو الحسن هذا الذي يُكنى الشيخ القاري به، والجواب ما ذكره القاري نفسه بقوله(من الأمور الغريبة، والقضايا العجيبة أنه في أثناء كتابتي هذا الكتاب وقع من قضاء رب الأرباب أن مات لي ابن اسمه "حسن" وفي الصورة والسيرة حاوي الفواضل، وجامع الفضائل، حسن الله مثواه، وزين مضجعه ومأواه، فحصل لي بهذا الحديث تعزية كاملة، وتسلية شاملة، ونرجو من الله حسن الخاتمة مع الإثابة التامة)[٢].

ولذا لقب بأبي حسن أو كني به، ولا مانع من القول بأن كنيته أبو الحسن موافق لما ذكره القاري عن نفسه كما في هذه القصة.

فقد كني الشيخ بأبي الحسن[٣]، وقد نبه الشيخ نفسه إلى هذه التكنية، كما عُرف بغيرها من الكنى، ولا يخفى أن هذه التكنية ربما غلبت عليه وصار يعرف بها.

ومن المؤكد أن الأول هو الراجح، لأن فيه إقراراً من الشيخ نفسه بتلك الكنية، وما دام الرأيان لم يترجح أحدهما ولم أكن مشاهدة لحياة القاري في الواقع فالأولى تفويض الأمر إلى الله في المسألة.

---

(١) المحبي؛ محمد أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج٣، ص١٨٥، الطبعة الأولى، ١٢٨٤هـ.

(٢) علي بن سلطان محمد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج٤، ص٢٠٥، تحقيق/ جمال عيتاني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

(٣) الشيخ/ محمد عبد الحليم عبد الرحيم الجشتي، البضاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شرح المشكاة، ج١، ص١، ٢، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م، الناشر: مكتبة الإمدادية باكستان.

د- ألقابه: لقب الشيخ القاري بألقاب كثيرة، منها المكى، الحنفي، الهروي[١]، (كما لقب بنور الدين، وهو لقبٌ دالٌ عليه ربما شاركه فيه كثير من أبناء بلدته)[٢].

فإذا انتهيت من عرض ما سلف أكون قد أوفيتُ بجانب مهم حول اسمه، ونسبه، ألقابه، وكناه، فإذا كان المشهور أن اسم أبيه سلطان محمد وهو علمٌ مركب من لفظين، أحدهما الأول النكرة، وهو سلطان، والثاني المعرفة، وهو محمد، ويعرف في اللغة باسم المضاف، والمضاف إليه، إذاً يمكن القول بأن تلك العادة جرت في أسماء الأعاجم وصارت جزءاً ثابتاً في تسمياتهم.

هـ- شهرته: (اشتهر أبو علي القاري بعلم القراءات حاذقاً فيها عالماً بوجوه القراءات في مستوى المتواتر، والمشهور، بل كانت لديه معرفة بالقراءات الشاذة، وما كان يميل إليها)[٣].

وإذا كان قول " الناس مؤتمنون على أنسابهم"[٤] هو الذي يعول عليه، فإن الشيخ القاري ذكر شيئاً من سنده فقال بإقرارهُ الذاتي (أما سندي في تحقيق القراءات، وتدقيق الروايات فعلى المشايخ العظام، والقراء الكرام، من أجلهم في هذا الفن الشريف، وأكملهم

---

(١) الشيخ/ عبدالله مرداد أبو الخير، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، ج٢، ص٣١٨ ،٣١٩.

(٢) الشيخ/ أبو الطيب صديق بن حسن الفتوجي، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، ص٣٩٨.

(٣) الشيخ/ عبدالله مرداد أبو الخير، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، ج٢، ص٣٢١، تحقيق/ محمد سعيد العامودي وأحمد علي، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(٤) إن حديث " المؤمن مؤتمن على نسبه" لا أصل له مرفوعاً، وإنما هو من قول مالك وغيره من العلماء بلفظ:" الناس مؤتمنون على أنسابهم". الملا علي القاري، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، ص٣٥١، حققه وعلق عليه وشرحه/ محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

شـيخ القراء بمكة الغراء، وحيد عصـره، وفريد دهره، العالم العامل الشـيخ سـراج الدين عمر اليمني الشـوافي، وكذلك ما ذكره من قراءته على جماعة قرأوا على الإمام العلامة محمد بن القطان خطيب المدينة المنورة وإمامها)[١]

لقد بدت بعض الآراء تتحدث عن نسـبته المكانية، منها (الهروي وهي المدينة الأشهر من مدن خراسان، وقد نسب القاري إليها لأمريين، احدهما أنه ولد فيها، والثاني أنه نشأ في ربوعها)[٢]

كذلك (نسب إلى مكة من حيث إن الشيخ القاري رحل إليه واستوطنها، وتشرف بالسكنى في بلد الله الحرام مكة المكرمة، وتوفي بها، ودفن بين من دفن من أهلها)[٣]

كما نسـب إلى المذهب الحنفي فقيل عليه "علي الحنفي" نسـبة إلى المذهب الفقهي الذي اعتنقه، وهو المذهب الحنفي، مذهب الإمام الأعظم "أبي حنيفة النعمان بن ثابت"، ولا يخفى أن القاري نفسـه قد نص على تلك النسـبة لمذهب أبي حنيفة النعمان، وذلك حين قال أما بعد فيقول الملتجى إلى حرم ربه الباري على بن سـلطان بن محمد القاري الحنفي، عاملها الله بلطفه الخفي، وكرمه الوفي)[٤].

---

(١) الملا علي القاري، المنح الفكرية في شـرح المقدمة الجزرية، ص٨٢، تحقيق/ أسـامة عطايا، مراجعة الدكتور/ أحمد شكري، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

(٢) الشـيخ/ خليل ابراهيم قَوتلالي، الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث، ص٤٦، ٤٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، دار البشائر الإسلامية بيروت، لبنان.

(٣) الإمام/ علي بن سلطان محمد القاري، الاستدعاء في الاستسقاء، ص١٠، المكتب الإسلامي، دار عمار ١٩٩٠م.

(٤) العلامة الشـيخ محمد نور الدين بن محمد زهران، نظرات في آيات القرآن الكريم سـورة الأعراف، ص٢١٢ ، ٢١٣، طبعة دار سعادة ١٣١٥هـ.

كما أن الشيخ القاري ذكر في كتابه" فتح باب العناية بشرح الُنقايَةُ" فقال (أما بعد، فيقول الملتجى إلى حرم ربه الباري، علي بن سلطان محمد القاري الحنفي)[١]، أما كلمة ملا فهي كلمة فارسية، يستخدمها أهل إيران، وتركستان، وتركيا، وأفغانستان، والهند، وباكستان، غير أن هذا الرأي لم يرجح غيره، وإنما ذكر على أنه قول لمن كرر أن كلمة ملا عربية مأخوذة مادتها من كلمة المولى، ومعناها العالم الكبير[٢].

ثانياً: الولادة والنشأة

أ- الولادة

اتفق أصحاب التراجم على أنه ولد في مدينة "هراة"[٣]، ولم تحدد تلك السنة التي ولد فيها القاري، فاكتفى جميع من ترجم له ممن وقفت عليهم بذكر محل ولادته فقط[٤]، في ذات الوقت سكت المؤرخون طويلاً عما يتعلق بأسرته، والديه ماذا كانا يعملان، وكيف كانا يقضيان حياتهما.

(١) الإمام نور الدين علي بن سلطان القاري، فتح باب العناية بشرح النُقايَةُ، ص٣١، المجلد الأول، قدم له سماحة المفيُ الشيخ الميس، اعتنى به/ محمد نزار تميم- هيثم نزار تميم، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) الشيخ/ خليل ابراهيم قوتلالي، الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث، ص٤٨.

(٣) هراة أكبر المدن العامرة بخراسان، وهي مدينة عظيمة، كثيرة العمارة، ولأهلها صلاح وعفاف وديانة، وهم على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وبلدهم طاهرة من الفساد. محمد بن عبد الله بن محمد بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٢٩٦، دار الشرق العربي.

(٤) المُحبي؛ محمد بن أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج٣، ص١٨٥، ونقل نفس الترجمة العلامة الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص٤٤٥.

ب-النشأة

اكتفى العلماء بمرحلة طلبه العلم، وذكروا أنه قضـــى تلك المرحلة كما يقضـــي سائر أبناء المسلمين، إذ كانت مدينة "هراة" العريقة يزدحم فيها تواجد مكاتب أو مدارس تحفيظ القرآن الكريم، كما كانت موئلاً وموطناً لكثير من العلماء في تلك الفترة.

ويذكر المؤرخون أن الشـــيخ الهروي (تعلم القرآن الكريم وحفظه عن ظهر قلب، وجوده حتى صـار متقناً له)[١]، كما ذهب المؤرخون إلى التأكيد على أنه (تلقى العلوم الأساسية فكون بنيته العلمية في تلك المدينة العريقة)[٢] التي ولد بها ودرج على ترابها، من ثم انتسـب أبو علي القاري ونشـأ إلى تلك المدينة التي انتسـب إليها كثيرٌ من أهل العلم والفضل[٣].

بعد أن انتهى من تحصـيل العلوم الأسـاسـية قرر الهجرة في طلب العلم لكن أي بلد يقصـد، لقد غلبت عليه النزعة الدينية، فقرر الانتقال إلى بلد الله الحرام مكة المكرمة حتى يكون من أهل البيت وسـاكنيه، وذلك حينما تغلب الشـاة إسـماعيل الصـفوي الذي يميل إلى جماعة الرافضـــة على "هراة" في ســـنة(٩١٦هـ)، وأحدث فيها فتناً دارت بين قتل المسـلمين ظلماً وعدواناً، أو الضـغط عليهم بنشـر تعاليم الفكر الرافضـي، والتزام العلماء أن يقرروا صحة هذه الشعائر، ويعلنوا قراءتها على المنابر.

فلما رأى العلماء أن لا سبيل إلى المعايشة تحت تلك الظروف هجر كثيرٌ منهم مدينة "هراة"، وانتقل إلى بيت الله الحرام، إذ اعتبروا أن الهجرة من بلد يقسو فيها أهل البدع، وتكثر الخرافات من الضروري أن يهاجروا منها إلى بلد الاسلام والسنة متخوفين

---

(١) الشـيخ/ عبدالله المرداد، المختصـر من كتاب نشـر النور والزهر في تراجم أفاضـل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، ج٢، ص٣١٨.

(٢) الشـيخ/ محمد عبد الحليم عبد الرحيم الجشـتي، البضـاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شـرح المشكاة، ج١، ص٢،٣..

(٣) الإمام العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج٤، ص٣٩٤..

من الوعيد الوارد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾(١)

أجل خاف كثيرٌ من العلماء أن يقعوا في هذا اللعن والطرد والعقاب الأليم فهاجروا إلى بيت الله الحرام، ومنهم علي القاري الذي هاجر إلى مكة وطاب له المقام بها وحمد الله على ذلك، وقد أقر هو نفسه بتلك النعمة الجديدة فقال(الحمد لله على ما أعطاني من التوفيق، والقدرة على الهجرة من دار البدعة إلى خير ديار السُنة التي هي مهبط الوحي وظهور النبوة، وأثبتني على الإقامة من غير حول مني ولا قوة)(٢).

لقد عاش القاري في بلد المهجر مكة المكرمة ملازماً مجالس العلماء، فأخذ عنهم ولم يترك مجلساً إلا ارتبط به، وقد ذكر المؤرخون الأمر الذي يتعلق بعيشه، وقرروا أن الشيخ التزم آداب الحديث الشريف "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ"(٣)، من المؤكد أن الشيخ القاري نظر للحديث الشريف على الناحية التربوية فألزم نفسه العمل بمقتضاها ممدوحة لمن قام بها.

ولأن الشيخ القاري قد رتب نفسه على أن يعيش عيشة الزهاد، فقد كان متعففاً عما في أيدي الناس، وذكر المؤرخون أنه (كان يأكل من عمل يده، وأنه كان يكتب كل

---

(١) سورة النساء، الآية ٩٧.

(٢) علي بن سلطان علي القاري، شم العوارض في ذم الروافض، ص٩٤، رسالة موجودة ضمن مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم الحديث ٢٠٧٢، ج٣، ص٥٧، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

عام مصحفاً بخطه الجميل وعليه طُررٌ[١]، كما كان يكتب على هوامشه بعض القراءات والتفسيرات ثم يبيعه ويكفيه قوتاً له من العام إلى العام)[٢]، ولئن صح القول فلست أدري أين كان حظُه من عطايا القائمين على الحرم بالنسبة للمعلمين فيه.

ثالثاً: طلبه العلم

لم يرتبط القاري بشيء يحول بينه وبين طلب العلم وتحصيله، يستوي في ذلك حاله في مسقط رأسه "هراة" أو حاله في بلد المهجر "مكة المكرمة"، وإذا كان في مسقط رأسه قد حفظ القرآن الكريم وتعلم علم التجويد، والقراءات، وتلقى العلوم الأساسية عن شيوخ عصره في بلده "هُراة"، فإنا لا نجد أكثر من صوت الشيخ "الجشتي" الذي قال عن القاري:(وقرأ الكتب الدراسية، وأخذ العلوم المتعارفة عن شيوخ عصره "بهراة")[٣]

ذكرت أنه هجر "هراة" واستقر بمكة المكرمة، وأنه بقي بها إلى أن توفى فيها، ومن المؤكد أن الشيخ القاري كان موجوداً بمكة عام(٩٣٥هـ) وما بعدها، أما لماذا؟ فلأن أقدم مشايخه وفاةً هو الشيخ محمد ابن علي بن أحمد الجُناجي، ثم إن استقراره بمكة، وطلبه العلم كان على الامتياز والتفوق بدليل أنه قرأ القرآن على القراء الأجلاء، وحفظ "الشاطبية" للإمام الشاطبي، وقرأ السبعة من طريقها، وأتقن القراءات بوجوهها، ثم بعد ذلك اشتغل بسماع الحديث، ودرس الفقه، والأصول، والتفسير، والتصوف،

(١) طررٌ بالضم كُفة الثوب، وهي جانبه الذي لا هدب له، وطرة النهر والوادي: شفيرة، وطرة كل شيء: حرفه، والجمع طررٌ، وأطرار البلاد أطرافها،. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٢، ص٧٢٤، ٧٢٥، تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٢) الشيخ/ خليل ابراهيم قوتلالي، الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث، ص ٥٦، ٥٧.

(٣) الشيخ/ محمد عبد الحليم عبد الرحيم الجشتي، البضاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شرح المشكاة، ج١، ص٣٠.

والمعقول حتى حذق فيها، وصـــار إماماً شـــهيراً بها، ولم تقف براعته وحذقه عند هذا الحد، وإنما انضم إليها علوم اللغة، والبلاغة، والنحو)[1]

رابعاً: أثر ظروف عصره عليه

سلف القول بأن الشيخ الملا علي القاري كانت نشأته كولادته في منطقة "مرو" التي كانت معقلاً للمذهب الســـني حين ولادته، ومن المعروف أن أهالي تلك المنطقة كان فيهم التشبع بالثقافة الإسلامية، والحرص على الشريعة الإسلامية فإذا أضفنا إلى تلك الأرض الخصـــبة عند مولد القاري، نجد أنه قد حدث لها نوعٌ من عدم الاســـتقرار الســـياســـي حيث طمعت الدول المجاورة، والقبائل المتلاحمة فيها، وحرصـــت كل واحدة على أن تقتطع جزءاً منها بحيث تســـيطر على كابل، وقندهار، وهراة"، في تلك الفترة ولد القاري، وتفتحت عيناه على وجود صراع حاد بين هؤلاء والسلطة السياسية القائمة في تلك الدولة[2]، استطاع شاه إيران "الصفوي" الشيعي أن يجعل علاقته بأفغانستان علاقة عقيدة، وبالتالي ســـارع إليها عندما وجد قدرته تكفي لتحقيق غايته فســـار إليها واستولى على البلاد التي اغتصبها، وقد رأى علي القاري ذلك بعين رأسه، وقد تمكن الصفوي الشيعي من حرب السنة[3].

---

(١) الشـيخ/ محمد عبد الحليم عبد الرحيم الجشـتي، البضـاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شـرح المشكاة، ج١، ص٣٠.

(٢) دائماً ينظر الآخر إلى غيره من ناحية النعم التي أولاه الله بها، وهو ما يعرف بالطمع في حقوق الآخرين، ولو أدرك كل فرد أن القناعة كنزٌ لا يفنى لما ســـفكت دماء ولا انتهكت أعراض، ولا سلبت أموال ولا اغتصبت حريات ولو انتبه الجميع إلى قول الله تعالى:﴿ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ سورة العنكبوت، الآية ٥، لتحققت نتائج عظيمة.

(٣) هذه الحروب لا تمثل الاسلام، وإنما تمثل الفكر الضيق الذي سيطر على القائمين بتلك الحروب، لأن الخلاف بين الشيعي والسني إنما هو خلاف في بعض الفروع، وبخاصة المذاهب المعتدلة في الشيعة، ومنه المذهب الزيدي، والمذهب الجعفري، والمذهب الإباضي، ومذهب الإمامية.

رأى أبو علي القاري منذ ولادته وحداثة سـنه ما فعل الجيش الصـفوي بإقليم خراسـان بعد الاسـتلاء عليه، حيث أعمل فيهم كل ألوان العذاب من قتل، وتنكيل إلى غيره، رأى القاري أن هذا الذي فعله الصفوي دفع العلماء للهجرة إلى بلاد الهند[١] وبلاد أخرى.

لقد رأى أبو علي القاري هجرة العلماء والرؤساء، ومن استطاع الهجرة إلى أعماق القارة الهندية بعيداً عن ويلات الحرب فكانوا كالمسـتجير من الرمضـاء بالنار" لقول النبي ﷺ فيما رواه عنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه:" شَكَوْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَّ الرَّمْضَاءِ فَلَمْ يُشْكِنَا"[٢].

بينما رأى كثيرٌ الهجرة إلى بلاد الحرمين الشـريفين، فهاجروا إليها خوفاً من انتشار البدع والفتن، وكثرة المصائب، والمحن (ومن توفيق الله أن هاجر الشيخ علي القاري إلى مكة المكرمة واستوطن بها)[٣]

إذاً أثر السـلطة الجديدة بقيادة الصـفويين هو الذي سـاقه إلى الهجرة من بلاده رغماً عنه مع حبه لوطنه، وتمنيه لو أنه اسـتقر به، فترى كذلك أثراً نفسـياً عليه ظل يعاني منه طيلة ما بقى له من عمر.

---

(١) بلاد الهند كانت تطلق في الماضي على شبه الجزيرة الهندية، وهي تحتوي على الهند، وباكستان، وكل ما تفرع عن شـبه الجزيرة الهندية، والاسـتعمار أو الطمع هو الذي غير طبيعة تلك البلاد وأضعف أهلها.

(٢) أخرجه الإمام ابن ماجه في سـننه، كتاب أبواب مواقيت الصـلاة، باب وقت صـلاة الظهر، رقم الحديث ٦٧٦، ج١، ص٤٣٢، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط ، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

(٣) خليل إبراهيم قوتلالي، الإمام القاري وأثره في علم الحديث، ص٢١.

أما أثر الناحية الاجتماعية فقد شـــرحه المؤرخ " القطبي"[١]، حيث يذكر أن مكة في وقت هجرة أبو على القاري إليها كانت محدودة من الناحية العمرانية بعض الشـيء، وذكر ترجمة لها أبرز فيها جوانب ثلاثة:-

الجانب الأول: ضيق المكان وقلة العمران أول الأمر.

الجانب الثاني: كثرة البضاعة وقلة المال، ومعنى هذا أن الاسعار كانت رخيصة لقلة الناس، وندرة الدراهم.

الجانب الثالث: أن أهم مصـــــدر للقوت كان هو "جراية القمح" التي حددها السلطان سليم الأول لأهل الحرمين[٢].

في ظل تلك الظروف الاجتماعية طفت على الســـطح عملية اختلاط الأجناس والأعراف، والألوان

داخل سكان الحرمين، إما بالمعاشرة أو المصاهرة[٣]، وقد تجيء عملية الاختلاط جمعاً بين المعاشرة والمصاهرة.

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمود النهرواني الهندي، ثم المكي، الحنفي" قطب الدين" الشـــهير بالقطبي (٩٩٠-٩١٧هـ)، مؤرخ، فقيه، مفســـر، عالم بالعربية، من تصـــانيفه: البرق اليماني في الفتح العثماني، طبقات الحنفية. عمر رضـــا كحالة، معجم المؤلفين "تراجم مصـــنفي الكتب العربية"، ج٩، ص١٧، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر، لبنان.

(٢) ياسر عبد ربه محمد أبو قوطة، جمع الوسائل في شرح الشمائل، ص٦٠.

(٣) المعاشـــرة هي طولة مدة الإقامة بين هذه الاجناس والتعاملات اليومية في البيع والشـــراء، وما يســـتتبع ذلك حتى قيل في الأمثال " من عاشـــر القوم أربعين يوماً صـــار واحداً منهم"، أما المصـاهرة فهي عملية التزاوج فيأخذون من بعضـهم بحكم شرع الله الذي يطبق في المسلمين من خلال قوله صـلى الله عليه وسـلم" إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَـوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ". أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب النكاح، باب الأكفاء، رقم الحديث ١٩٦٧، ج١، ص ٦٣٢، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

لقد أثر هذا الجانب الاجتماعي على الشـيخ علي القاري لأنه كان من الأجناس التي عاشت مع أهل مكة عيشها وفقرها، وكان لأهل تلك البلاد مصدران:

أحدهما: مصـدر جراية الحنطة التي كانت تأتيهم إما من أوقاف "مصـر" أو من "تركيا" والبلاد التي استولت عليها، إلا ان أبا علي القاري كان متعففاً قنوعاً بما حصل.

ثانيهما: هو مصـدر شـخصـي رائده فيه " "مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ".

لقد ذكر المترجمون والمؤرخون أن الشـيخ علي القاري قد وهب حسـن الخط والبراعة فيه، واسـتغل خطه الحسـن في كتابة القرآن الكريم، وأراد أن يُجمل يمينه بما يكتب من قرآن ربه، ويجتهد في ذلك حتى كان يكتب في كل عام مصـحفاً مطرزاً ببعض القراءات، والتفاسـير فاصـلاً بين النص القرآني والتعليقات بفاصـل واضـح المعاني(١).

ونقل أهل العلم عن أبي علي القاري من الناحية المجتمعية، أنه ما كان يأكل إلا من عمل يده، وكان له خط من عجائب الدنيا، وكان يكتب في كل عام مصـحفاً وعليه طرزٌ من القراءات والتفاسير، ثم يبيع
فيكتفي بما أتاه في القوت من العام إلى العام(٢).

(١) الإمام علي القاري، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، المقدمة، ص٢٥، تحفة خطاطين، ص٣٢٤، والأعلام، للزركلي، ج٥، ص١٦٦، دار العلم للملايين بيروت، ١٩٩٩م

(٢) ونقل عن البعض أنه كان يكتب مصـحفين في السـنة ويبيعهما، يتصـدق بثمن واحد إلى فقراء البيت، ويتعيش بالآخر. الشـيخ/ عثمان العرياني، الرمز الكامل، ص١٢، وراجع للشـيخ/ عبدالله المرداد، المختصـر من كتاب نشـر النور والزهر في تراجم أفاضـل مكة من القرن العاشـر إلى القرن الرابع عشر، ، ج٢، ص٣٢٠، ولا أرجح هذه الرواية لأن الشيخ القاري قد أثر عنه إخراج مؤلفات كثيرة، وربما لم تكن تسمح له بكتابة سوى مصحف واحد.

في ظل تلك الظروف الاجتماعية القاسية يحاول كل فرد الاعتماد على الله، ثم على نفسه وإلا فعلى من يعتمد إن ضاقت به السبل لابد له من التكيف بالواقع الذي يعيش ويتصرف في حدوده واضعاً رأس ماله نُصب عينه، وأبرز رأس المال هو القناعة، والعفاف، والكفاف، ثم المشاركة في الانتاج وصيانة عملية الادخار، بل وسياستها.

فيذكر الشيخ محمد عبد الحميد النعماني أن أثر الظروف الاجتماعية على الشيخ القاري هو قناعته بما يُحصل من مصدر رزقه،(غلب على حاله الزهد، والعفاف، والرضا بالكفاف[1]، وكما كان صاحب عفة ورضا، فقد كان أيضاً قليل الاختلاط بغيره)[2].

لقد كان على الشيخ القاري أن يكون اختلاطه بغيره في المناسبات الاجتماعية منهجاً في حياته، وبخاصة البلاد التي يكثر فيها الاختلاط، وربما تنتشر بين أفرادها ما لا يمكن ضبطه.

أما الشيخ على القاري فقد كان اختلاطه بما أمر الله من كثرة العبادة، والتقوى كما كان شديد الاقبال على عالم السر والنجوى، ومثله لا يتأثر داخله كثيراً بما يتأثر به غيره مع مشاركته إياهم في موقع اجتماعي واحد أو مكان سكنى محدد.

---

(١) الرضا بالكفاف خلق اسلامي نبيل حثت عليه الشريعة الإلهية، لأن من عف وكف بارك الله له ويسر أسبابه، وفي الحديث "مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ. بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ". أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب أبواب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم الحديث ٢٣٨٠، ج٤، ص٥٩٠، تحقيق/ إبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

(٢) الشيخ/ محمد عبد الحليم النعماني، البضاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شرح المشكاة، ص٣٠.

وأما أثر الناحية العلمية عليه، فقد كان مجدداً، لأن الشـــيخ القاري لم يتأثر بالنقصـان الوارد في العلوم الاسـلامية حينئذ لما هو معروف أن عملية الاحتلال لوطن من الأوطان أو فقدان مصـادر الثروة يؤثر بشـكل واضـح على العلوم التي كانت لها السيادة.

من ثم أخذ الشيخ علي القاري عهداً على نفسه أن يكون أميناً مع نفسه، وحيث قد أقام ســنين عديدة بمكة، وتتلمذ على كثير من علمائها، وتأثر بهم في شــتى فروع العلم، وهي عملية التلقي، فقد بات من الضـــروري أن يحول ما تلقاه إلى نتاج جديد يصح أن يطلق عليه تجديد العلم(١).

لقد كانت خلوة الشيخ علي القاري أحد عوامل النتاج التجديدي، الذي سلك طريقه إليه، وبخاصـــة أن من العلماء الذين أخذ عنهم وتأثر بهم لهم الوزن العلمي في عالم يحتاج العلماء، فمن تأثر بهم في مكة العلامة "ابن حجر الهيتمي" (ت: ٩٧٣هـ)، وهو صـاحب البحث العلمي والامتياز المعرفي في خدمة الُسـنة وشـرحها، والكتابة عنها، فكان شـيخاً مبجلاً عالماً جليلاً اسـتفاد منه الشـيخ علي القاري في الفكر والتأليف كما استفاد منه في التجديد.

وممن كانوا مشاعل النور الانساني الذين أخذ عنهم الشيخ القاري، الشيخ "علي الُمتقى الهندي"(ت:٩٧٥هـ)، ويكفي أن نعرف عن "المتقى الهندي" ما قام به في علوم العقيدة، والسـنة المطهرة، والفقه وغيرها، وكانت له لمسـات تجديدية شـهدت له، بل قد عَده أحد الباحثين من شـيوخ القاري الذين انتفع بعلمهم في مرحلة التحصـيل، ثم تحول تحصيله فيما بعد إلى نتاج ذاتي، وعد منهم ثمانية(٢).

(١) علي بن سلطان محمد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، ج٢، ص٥٧٥.

(٢) انظر لخليل إبراهيم قوتلالي، الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث، ص٧، لتعرف أكابر هؤلاء الشيوخ.

غير خاف القول بأن كل جانب من جوانب العصر يترك أثراً فاعلاً فيمن عايشه إيجاباً أو سلباً، وكلما كانت القيادة السياسية نحافظ على الأمن والاستقرار، فإن الطمأنينة هي السائدة، أما إذا تغيرت الظروف السياسية إلى الجانب السلبي فإنه ينعكس على باقي ظروف المجتمع وأحواله، ولعل هذا مما دعا فقهاء الشريعة إلى إصدار فتاوي شرعية معبرة عن فكر سياسي راق، وهو استقرار الحكم تحت قيادة رشيدة.

يقول الإمام الغزالي(إن الدنيا والأمن على الأنفس والأموال لا ينتظم إلا بسلطان مطاع فتشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السلاطين والأئمة، وأن ذلك لو دام ولم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع دام الهرج وعم السيف، وشمل القحط، وهلكت المواشي، وبطلت الصناعات، وكان كلٌ غلب سلب، ولم يتفرغ أحدٌ للعبادة والعلم إن بقى حيا، والأكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف، لهذا قيل الدين والسلطان توأمان، وما لا أمن له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، ثم ينتهي إلى القول بأن السلطان ضروريٌ في نظام الدنيا، ونظام الدنيا ضروري في نظام الدين، ونظام الدين ضروريٌ في الفوز بسعادة الآخرة، فكان وجوب نصب الإمام من ضروريات الشرع الذي لا سبيل إلى تركه)[1].

ويقول العلامة الماوردي(ت: ٤٥٠هـ) (إن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيماً خلف به النبوة، وأحاط به الملة، وفوض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع وتجمع الكلمة على رأي متبوع فكانت الإمامة أصلاً استقرت عليه قواعد الملة، وانتظمت به مصالح الأمة حتى استثبتت بها الأمور العامة، وصدرت عنها الولايات الخاصة، فلزم تقديم حكمها على كل حكم سلطاني، ووجب ذكر ما اختص بنظرها على كل نظر ديني، لترتيب أحكام الولايات على نسق متناسب الأقسام متشاكل الأحكام)[2].

(١) الإمام الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص١١٤، ١١٥، مكتبة الحلبي الطبعة الأخيرة.

(٢) الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية، ج١، ص٥٨، تحقيق الدكتور/ عبد الرحمن عميرة، طبعة دار الاعتصام بالقاهرة.

أخلص مما سلف إلى أن أبا علي القاري كان على وعي بأن استتباب الأحوال السياسية يساعد على استتباب النواحي الاجتماعية، وترقي المعارف العقلية، كما يساهم في استقرار النظم الاقتصادية، واختلالها يترتب عليه اختلال الجوانب الأخرى على ما سلفت الاشارة إليه.

خامسا: أبرز مؤلفاته

١- مؤلفاته في العقيدة

ألف الشيخ في العقيدة ما يربوا على أربعة عشر كتاباً ورسالة[١] من أبرزها، شرح الفقه الأكبر، القول السديد في خلف الوعيد[٢]

٢- مؤلفاته في التفسير وعلوم القرآن

ذكر المؤرخون أنه كتب في هذا العلم ما يزيد على ثماني مؤلفات من أبرزها، أنوار القرآن وأسرار الفرقان[٣]، بجانب حاشية على تفسير البيضاوي، والهبات السنية

(١) إسماعيل البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، ص٧٥٣.
(٢) لطالب المزيد الرجوع إلى الإمام على القاري وأثره في علم الحديث، لخليل إبراهيم قوتلالي، حيث تناول هذا الجانب على وجه تفصيلي.
(٣) إسماعيل البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، ص٧٥٢.

العلية على أبيات الشاطبية الرائية[١].

٣- مؤلفات في الفقه وأصوله

ذكر المؤرخون أنه كتب في الفقه وأصوله ثماني مؤلفات من أبرزها، الاستدعاء في الاستسقاء، وتطهير التوبة بتهليل النية[٢].

٤- مؤلفاته في الحديث وعلومه

ذكر المؤرخون أنه ترك في هذا الجانب سبع مؤلفات من أبرزها، الأحاديث القدسية الأربعينية[٣]، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح.

٥- مؤلفاته في التصوف

ذكر المؤرخون أن الشيخ القاري كتب في آداب المربين، وقد ذكر ذلك الباحث ياسر عبد ربه محمد أبو قوطه في كتابه جمع الوسائل في شرح الشمائل[٤]

□

(١) الشيخ/ محمد عبد الحليم عبد الرحيم الجشتي، البضاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شرح المشكاة، ج١، ص٩١.

(٢) الشيخ/ عبدالله المرداد، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، ، ج٢، ص٣١٩.

(٣) راجع لخليل إبراهيم قوتلالي، الإمام القاري وأثره في علم الحديث، ص٤٢٣، والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، للشيخ/ أبي الطيب صديق بن حسن الفتوجي، ص٣٩٨.

(٤) ذكر الباحث أن رسالته هذه قدمها إلى كلية الدعوة وأصول الدين قسم الكتاب والسنة جامعة أم القرى بمكة المكرمة في العام الدراسي ١٤٢٩هـ، وذكر فيها أن الشيخ القاري ترك ما يربى على مأتين وستين وثلاثة كتاب ورسالة. راجع رسالته من ص٨٥ إلى ص١٢٥، وأسند كل كتاب أو رسالة إلى المصدر الذي أخذ منه، ولمزيد الرجوع إلى تلك الرسالة فقد تكون فيها الغُنية.

سادساً: وفاته

قضـــى الله في كتابه أن كل شـــيء له بداية فمن المؤكد أن تكون له نهاية[١]، والشـيخ القاري ممن يشـملهم هذا القضـاء الإلهي، ومن ثم تبقى تلك النهاية مقترنة بما سـجله أصـحاب الاختصـاص من المؤرخين أو غيرهم، فذكروا أنه رحمه الله توفي أثناء إقامته بمكة المكرمة في شهر شوال سنة أربع عشرة وألف على الصحيح[٢].

ثم دفن بمقبرة المعلاه بمكة المكرمة، وصـــلى عليه من حضـــر تلك الديار المكرمة، وذكر المُحبي (أنه لما بلغ خبر وفاة القاري علماء مصـر صـلوا عليه صـلاة الغائب بالجامع الأزهر الشـــريف، في جمع حافل بأهل العلم والأعيان)[٣]، رحم الله الشيخ علي القاري رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته إنه نعم المولى ونعم النصير.

(١) هذا الحكم يشـــمل جميع المخلوقات عدا الجنة أكرمنا الله تعالى بها، وفيها الخلود أبداً لقوله تعالى:﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٍ ﴾ سورة هود، الآية ١٠٨.

(٢) راجع في المسـألة للعلامة عبد الحي الكنوي، التعليقات السـتة، ص٢٥. وللمحبي محمد أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج٣، ص١٨٦،

(٣) المُحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج٣، ص١٨٦.

الفصل الثاني: العصمة مفهومها، وكيفيتها، ووقتها، وموضوعاتُها

أولا: مفهوم العصمة

وردت مادة الكلمة "ع. ص. م" في القرآن الكريم حوالي ثلاث عشرة مرة[١]، منها قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٢]، ومنها قوله تعالى:﴿ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٣]، وسوف أتناولها في كل من اللغة والاصطلاح على النحو التالي:-

أ- في اللغة

وردت مادة الكلمة "ع . ص. م" في لغة العرب على معان من أبرزها، الحماية، والحفظ، ثم الوقاية، بجانب الامتناع، وما تشـــد به القربة، والحاجب، والمنحة الإلهية، ورباط الزوجية[٤].

---

(١) الأســـتاذ/ محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، باب العين، ص٤٦٣، طبعة مكتبة الغزالي، دمشق ١٩٤٥م.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠١.

(٤) راجع في هذه المعاني لأبي نصر الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٥، ص١٩٨٦، للفيروز آبادي، القاموس المحيط، باب العين، ج١، ص١١٣٨، ولابن منظور، لسان العرب، باب العين المهملة، ج١٢، ص٤٠٣، ولإبراهيم مصطفى وآخرين، المعجم الوسيط، باب العين، ج٢، ص٦٠٥.

ويمكن استخراج تعريف اجرائي، للفظ العصمة في اللغة وهو أن العصمة هي الحفظ من الوقوع في الخطأ، والحماية مما يمكن أن يصيب، والوقاية من الأمراض التي لابد فيها من الاحتراز بحيث يكون المرء واقعاً في نطاق المنحة الإلهية التي تحول بينه وبين المعصية ميلاً إليها أو وقوعاً فيها(١).

ب- في الاصطلاح

ذهب الإمام الأعظم أبو حنيفة إلى أن عصمة الرسل هي حفظهم (عن الصغائر، والكبائر، والكفر، والقبائح)(٢)، وهو تعريف رغم وجازة مفرداته إلا أنها موفيةٌ بالغرض، أما لماذا؟ فلأن حفظ الله للنبي من الوقوع فيما يخرج عن الطاعة – وهي المعاصي أياً كان تعريفها أو مفهومها أو نوعها– فذلك مما يتناسب مع مقام النبوة من حيث إن الله سبحانه وتعالى اختصهم لذاته، وجعل الرسالة صفة خاصة بهم، والله سبحانه وتعالى لا يختار ولا يصطفى إلا من هم أكمل الناس في أخلاقهم وخُلقهم.

وذهب أبو منصور الماتريدي(ت:٣٣٣هـ) إلى أن العصمة تكون للرسل والأنبياء جميعاً(وأنهم معصومون عن الكبائر)(٣)، وعبارة الشيخ فيها كثيرٌ من الضيق، أما لماذا؟ فلأنه ذكر دليلاً عقلياً مؤداه أنهم لو لم يكونوا معصومين عن الكبائر لم ينكفوا عن الكذب، والكاذب لا يصلح للرسالة، أما الصغائر فهم غير معصومين عنها لأن الله تعالى أثبت لهم مقام الشفاعة، فلو عُصموا عن الصغائر لوقع الضعف في مقام

(١) هذا التعريف الإجرائي أردت بناءه من معاني اللغة، حتى يكون واضحاً في العقل، والمعلوم أن التعاريف الإجرائية هي الممهد المعرفي للموضوعات المتعلقة بها، بل تنقل الموضوع المطروح إلى الواقع الاصطلاحي، ولذا فالتعاريف الإجرائية واسطة بين المعاني اللغوية والتعريفات الاصطلاحية.

(٢) الإمام أبو حنيفة، الفقه الأكبر، ص٤، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند.

(٣) أبو منصور الماتريدي، شرح الفقه الأكبر، ص٣٩، تحقيق/ الأنصاري، طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند، حيد آباد الدكن، شهر ذي الحجة ١٣٢١هـ.

الشـــفاعة[1]، لأن من لم يبتلى ببلية لم يرق على المبتلى، فهذا هو الحكمة في زوال العصمة عن الأنبياء في الصغائر، وبعض أصحابنا لم يلفظ الصغائر وإنما يسمونها الزلل، ولا فرق بين اللفظين في الحقيقة.

وهذا التعريف الاصطلاحي شاملٌ المفهوم والمحترز الذي تدور حوله العصمة، ولذا فهو تعريف يمكن اعتباره شاملاً من ناحيتين:-

الأولى: أنه خص الأنبياء بحفظ الله تعالى ظواهرهم وبواطنهم، وهو معنى العصمة.

الثانية: هو أنه لو جاز أن تحرم العصـــمة وارتكبوا أفعالاً محرمة والله أمرنا باتباعهم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[2]، فقد وجت طاعتهم فيما وقعوا فيه من المعاصي، وهي أمور محرمة شرعاً، وإذا لم يتم اتباعهم وقع المخالف في المعصية.

وأرى أن بين الشيخين" أبو حنيفة، وأبو منصور الماتريدي" نوعاً من الاتفاق متى تحرر المقصـــود من لفظ الصـــغائر ودلالاته، فإذا كان الإمام الأعظم قد نبه إلى أن العصمة للأنبياء تكون عن الكبائر والصغائر، وذكر الشيخ الماتريدي أنها تكون عن الكبائر ولا تكون عن الصغائر، فمن الممكن القول بأن الصغائر عند "أبي حنيفة" هي التي قصـــدها فاعلها ورتب لها، وبالتالي فهم معصـــومون منها، أما عند الشـــيخ أبو منصور الماتريدي فقد بان من لفظ الصغائر الغير معصومين منها ما يقع سهواً أو

(١) المراد بالشفاعة عنده ما يرتبط بالدنيا دار العمل، والآخرة دار الأجر، وهو الذي تدل عليه سياقات الكلام الذي انتهى إليه الماتريدي.

(٢) سورة النساء، الآية ٥٩.

نسياناً، وينتفي عنه القصد والإرادة، وبالتالي تكون الجهتان قد توافقتا، ويكون الخلاف هو حول المنطوق اللغوي، وحينئذ يسمى الخلاف لفظياً من تلك الناحية.

أما الشيخ البزدوي (ت:٤٩٣هـ) فقد كان صاحب سعة في الحديث عن عصمة الانبياء من ناحية التعريف، وإن لم يذكره على طريق الحد إلا أنه ذكره على طريق يشبه الاصطلاح الخاص فقال أهل السنة والجماعة على (أن الأنبياء والرسل معصومون من الكبائر من الذنوب والصغائر بطريق القصد، أما الزلات فغير معصومين عنها، وهي ما يقع من الذنوب عنهم خطأ أو نسياناً)[١].

من البين أن هذا التعريف للعصمة قد ورد فيه أمران:-

الأول: ما يجب للرسل وهو العصمة من الكبائر من الذنوب والصغائر بطريق القصد، لأن القصد معناه اتفاق الإرادة الحرة والقدرة على القيام بما يخالف العصمة، فإذا انتفى القصد وانتفت الإرادة فلا تكون مخالفة؛ لأن الله تعالى جرت سنته في خلقه أن لا يؤاخذ العباد إلا بما قصدوا، يدل عليه ظاهر قوله تعالى:﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٢].

الثاني: ما يجوز في حقهم ولا يُنزل قدرهم، وهي الزلات التي تقع عن طريق الخطأ أو النسيان، وتلك مسألة تم اقتباسها مما وقع لأبي البشر جميعاً وهو آدم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ

(١) الإمام/ أبو اليسر محمد البزدوي، أصول الدين، ص١٧٢، تحقيق الدكتور/ هانز بيتر لنس، ضبط وتعليق الدكتور/ أحمد حجازي السقا، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[1]، ولم تكن معصية آدم إلا نوعاً من الخطأ الغير مقصود، بجانب أن المحرم هنا لم يكن محدداً، وإنما جاء على ناحية يبدوا فيها الاجتهاد، ومرد ذلك إلى علم الله سبحانه وتعالى.

أما العلامة الصابوني(ت:٥٨٠هـ) فقد ذكر أن للعصمة مأخذين:-

الأول: مأخذ اللغة فقال العصمة في اللغة عبارة عن (الحفظ بالمنع والإمساك)[2]، واستدل على المعاني الواردة في اللغة بآيات منها قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3]، أي حافظ ومانع.

وقوله تعالى خبراً عن نوح عليه السلام:﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾[4]، وقوله تعالى:﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[5]، أي استمسكوا، ودلالة اللغة محل تقدير.

---

(١) سورة طه، الآية ١٢١.

(٢) الشيخ/ نور الدين الصابوني، الكفاية في الهداية، ص٢٠٣، تحقيق/ محمد آروتشي، مركز البحوث الإسلامية، إستانبول سلسلة عيون التراث الإسلامي رقم ٩، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

(٣) سورة يونس، الآية ٢٧.

(٤) سورة هود، الآية ٤٣.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

الثاني: مأخذ الاصطلاح

يقول الشيخ الصابوني العصمة في الشريعة عبارة عن حفظ لازم لما يشينه أو يسقط قدره[١]، وإذا كان

هذا تعريف العصمة لدى الصابوني فهل يوجد خلاف حول هذا التعريف، الواضح أن الخلاف في كيفية العصمة وليس في مفهوم العصمة.

أما الكمال بن الهُمام(ت:٦٨١هـ) فقد عرف العصمة بأنها(تخصيص القدرة بالطاعة فلا يخلق له قدرة المعصية)[٢]، ومعنى ذلك أن الرسول والنبي مسير في كل أحواله على الطاعة، فلم تُخلق له قدرة على المخالفة، ويمكن القول بأن هذا التعريف استبعد القصد من الوقوع في المعصية، واستخدم له عبارة فلم يُخلق له قدرة على المعصية لتكون الغطاء أو التأويل المقبول في المسألة، وكأن المعنى أن النبي لم تخلق له قدرة القصد للمعصية وهو أمرٌ مفيدٌ في باب التعريف، أما لماذا؟ فلان أهل الملل أجمعوا على وجوب عصمة الأنبياء عن تعمد الوقوع في المعصية أيّاً كان شكلها وصورتها أو كيفيتها.

أما أبو علي القاري(ت:١٠١٤هـ) فقد تبين أنه لا يقف عند منطقة معينة، وإنما يفتح صفحته ليستخرج منها ما يتعلق بالعصمة، فيذكر أن العصمة في حد ذاتها (فضلٌ من الله ولطفٌ منه) [٣].

---

(١) الصابوني، الكفاية في الهداية، ص٢٠٣، وهذا التعريف مترددٌ في مؤلفات الماتريدية، راجع للإمام النسفي، تبصرة الأدلة، ج١، ص٥٣٢، ٥٣٣، وللصابوني، البداية من الكفاية في الهداية في أصول الدين، ص٥٤.

(٢) الكمال بن الهمام، المسايرة في علم الكلام والعقائد التوحيدية المنجية في الآخرة، ص١٢٥، مراجعة الأصول للشيخ محمد محي عبد الحميد، طبعة صبيح الأولى بدون تاريخ.

(٣) الإمام الملا علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٥، خرج آياته وأحاديثه وعلق عليه/ علي محمد مندل، طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

ومعنى ذلك أنه يركز على الفضـــل الإلهي، واللطف، والرحمة كأنه يعقد النتيجة ثم ينطق بها، وقد اختزن تعريفات العصمة في عقله الواعي بغية أن يقدمها في أشكال يرتضيها باعتبار استفادة اللاحق من السابق(١).

والبين أن الشـــيخ القاري قد درس أقوال الســـابقين في العصـــمة، وتكررت له مراجعتها حتى إذا استقر عند المفهوم الذي ارتضاه سجله ليكون خاصاً به يُنسب إليه، وقد استغرق ذلك منه وقتاً تعرض فيه لآراء من سبق، ثم اختار منها ما شكل التعريف الذي ارتضـاه، ومن مظاهر ذلك حكايته عن غيره كون الأنبياء والمرسلين منزهون عن الصغائر، والكبائر، والكفر، والقبائح(٢) .

ولا شـك أن العبارة التي أوردها الشـيخ للإمام أبو حنيفة جامعة بين بُعد الانبياء عن الصغائر مطلقاً والكبائر مطلقاً، والكفر والقبائح مطلقاً، بحيث لا يكون النبي قاصداً واحداً منها بشكل من الاشكال.

ولا يخفى أن الشيخ القاري وهو يقدم مفهومه حول عصمة الأنبياء ينتقي مفرداته من الجمل الكثيرة التي قيلت على ألسـنة من سـبقه، ثم ينتقي منها المفرد الذي يصـح لديه، وتلك مسـألة يحسـن الوقوف عنده لبيان أن الشـيخ القاري كان من طبيعته الهدوء النفسي، والاستقرار المعرفي، بجانب انتقاء الألفاظ التي تؤدي به إلى غايته.

---

(١) فكرة اسـتفادة اللاحق من السـابق في التراث الإسـلامي واضـحة ومن تتبعها وجدها في أفضـل صـورها لدى شـيوخ المذاهب ومتابعيهم فالعلم التراكمي تجيء معه ظاهرة التأثر والتأثير من تلك الناحية "ناحية النقل والاستفادة"

(٢) نُقل هذا التعريف عن الإمام أبي حنيفة، الفقه الأكبر، ص٤، وصـــار متداولاً بين كثير من الماتريدية، وأقام الشـــيخ الملا علي القاري عليه شـــروحاً مطولة. راجع للإمام أبي علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٠، ١٠١.

ولا نعجب إذا وجدنا أن هذا المنقول عن أبي حنيفة في الفقه الأكبر قد تسلل إلى كل من القاري(ت:١٠١٤هـ)، والمغنيساوي[١](ت:١٠٩٠هـ) حيث يذكر (أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم منزهون عن الكبائر، الصغائر، والكفر، والقبائح قبل النبوة وبعدها، وقد كانت زلات كأكل آدم من الشجرة، وخطايا كقتل موسى رجلاً من قوم فرعون، فإنه لم يقصد قتله بل قصد ضربه لدفعه عن الإسرائيلي فوقع الضرب قصداً، والقتل خطأً وهو زلة لأن كل خطئ زلة)[٢].

لا يخفى أن شيوخ المذهب ومن تبعهم إنما يتعاملون بالألفاظ المستعملة[٣] ويقدمون معطياتها، بحيث تؤدي نتائج يصير التمسك بها قاعدة عامة، ومن مظاهر ذلك ما نقل عن الإمام النسفي الماتريدي في تفسيره بأن(أئمة سمرقند لا يطلقون اسم الزلة على أفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنها نوع ذنب، ويقولون فعلوا الفاضل وتركوا الأفضل فعوتبوا عليه لأن ترك الأفضل منهم بمنزلة ترك الواجب من الغير حتى قيل زلة الأنبياء والأولياء سبب القربى إلى الله تعالى)[٤].

ما دمت قد عرضت في مفهوم العصمة ما عرضت، وعلقت عليها بما وفقني الله تعالى إليه، فمن المناسب الانتقال إلى جانب آخر مما يتعلق بالعصمة.

ثانياً: كيفية العصمة:

(١) أحمد بن محمد، أبو المنتهي، شهاب الدين المغنيساوي: فقيه حنفي عالم بالقراءات من أهل مغنيسا (بتركيا) له كتب عربية، منها (شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة). خير الدين الزركلي، الأعلام، ج١، ص٢٣٤، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر٢٠٠٢م.

(٢) العلامة أبو المنتهى أحمد بن محمد المغنيساوي، شرح الفقه الأكبر، ص١٣٢، ١٣٣، طبعة دائرة المعارف النظامية بالهند حيدر آباد الدكن ١٣٢١هـ.

(٣) المقصود بالألفاظ المستعملة ما يصح أن يخبر به أو يخبر عنه، بحيث يؤدي فائدة للسامع والمتكلم.

(٤) نقلاً عن العلامة أبو المنتهى أحمد بن محمد المغنيساوي، شرح الفقه الأكبر، ص١٣٣.

فقد نبه إليها علماء الماتريدية من قبل حتى إذا جاء الشيخ القاري تسلمها هدية كريمة بحثها وجملها، ثم أخذها بيمينه، ومن ثم يحسن مراجعة الكيفية لدى من سبقه لنرى ماذا قدموه له وماذا قدم هو لكيفية العصمة.

أ- ما قبل القاري

ذهب الصفار إلى أن كيفية العصمة تكون في اللطف الإلهي من حيث إن جميع الأنبياء والمرسلين(قهروا نوازع الهوى في ذات الله تعالى وتولوا جلال الله على كل حال، وذادوا في قهر الهوى، ولذا وصفهم الله بأوصاف المدح فوق نهايات العقول)[1]، ثم استبدل على ما ذهب إليه بقوله تعالى:﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾[2]، ومن ثم فالصفار بتلك الجمل إنما يوضح كيفية العصمة على النحو الذي استقر عنده.

أما الكمال ابن الهُمام فإنه تحدث عن كيفية العصمة، وذكر أنها تكون عن الكبائر مطلقاً، أما الصغائر غير المنفرة فيمكن أن يقع فيها الخطأ أو السهو في الأفعال، ثم انتهى إلى النتيجة وهي أن أحداً من أهل السنة لم يُجوز ارتكاب المنهي منه عن قصد، ولكن بطريق السهو والنسيان، وأطلق عليه اسم الزلة[3].

فإذا بحثنا عن مصدر كلمة الزلة وهل هي مصطلح كلامي أم مصطلح فقهي أم أصولي، وقد سار بها الركبان بعد انطلاقها الأول، والجواب أن أول من أطلقها في المحيط الكلامي هو الإمام أبو حنيفة فيذكر في

(١) العلامة الصفار، تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد، ص٥٤٦.

(٢) سورة ص، الآيات(٤٧-٤٥).

(٣) الكمال ابن الهمام، المسايرة في علم الكلام والعقائد التوحيدية المنجية في الآخرة، ص١٢٨.

الفقه الأكبر أنه (كانت منهم زلات وخطيئات)[١]، ونقل عن أبي منصـــور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ) في كيفية العصـــمة قوله(بل لطف من الله تعالى وفضـــل مع بقاء الاختيار والمسؤولية تحقيقاً للابتلاء والاختيار)[٢].

ولا يخفى أن تلك الكيفية قد نالت عناية من المدرســـة الماتريدية، فذهب القُونوي (ت:٧٧١) إلى القول بأن الناس في كيفية العصمة لهم آراء يمكن اجمالها فيما يلي:-

الأول: أنها محض فضل الله تعالى، بحيث لا اختيار للعبد فيه، وذلك إما يخلقهم على طبع يخـالف طبـاع غيرهم بحيـث لا يميلون إلى المعـاصـــي، ولا ينفرون عن الطاعات كطبع الملائكة.

الثاني: إما بصــرف هممهم عن المعاصــي، وجذبهم إلى الطاعات جبراً من الله تعالى بعد أن أودع في طبايعهم ما في طباع البشر[٣]

أما الشـيخ رمضـان بن محمد الحنفي(ت:٩٧٩هـ) فقد ذكر في كيفية العصـمة عبارات محددة، وتفصيلات دقيقة، فقال(إن الأنبياء معصومون عن الكذب فيما يتعلق بأمر الشرائع وتبليغ الأحكام، وارشاد الأمة، واستدل على بطلان العمد بالإجماع، وأما الســـهو فاســـتدل عليه بما عند الأكثرين، وأما ما يتعلق بغير الشـــرائع والاحكام فهم معصـــومون عن الكفر قبل الوحي وبعده بالإجماع، كما هم معصـــومون عن تعمد الكبائر عند الجمهور)[٤].

---

(١) الإمام أبو حنيفة، الفقه الأكبر، ص٤.

(٢) بلقاسـم بن حسـن الغالي، أبو منصـور الماتريدي حياته وآراؤه العقدية، ص٢٠٣، طبع بالمطابع الموحدة تونس، دار التركي للنشر ١٩٨٩م.

(٣) العلامة/ جمال الدين محمود بن أحمد بن مســـعود القونوي الحنفي، مخطوط بعنوان القلايد في شـــرح العقائد، لوحة٤٩، المملكة العربية الســـعودية مكتبة الحرم المكي الشـــريف ١١١٩هـ، تصوير/ محمد عبد العزيز سيد ١٤٠٥هـ.

(٤) الشيخ/ رمضان بن محمد الحنفي، المجموعة السَنية على شرح العقائد النسفية، ص٥٥٥، تحقيق/ مرعي حسن الرشيد، دار نور الصباح مؤسسة محمد نوري..

وذهب العلامة أبو المنتهى أحمد المغنيساوي(ت:١٠٩٠هـ) إلى القول بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام(كلهم منزهون عن الصغائر والكبائر والكفر والقبائح)[١]، ومن ثم فإنه يرى أن الأنبياء وجميع المرسلين منزهون عن كل صغيرة وكبيرة، كما هم منزهون عن الكفر والقبائح، ويؤكد أن ذلك قبل النبوة ومعها بحيث تستمر مع النبي حتى لقاء ربه.

وإذا كان هذا الرأي هو الذي يميل إليه فمن المؤكد أن عبارته تلك قد تداخلت مع عبارة الإمام أبي حنيفة، ونقل عنه ودخل في متن عبارته مؤكداً وجهة نظره، وتفسير المتن الذي وقف عنده أبو حنيفة، لكن الشيخ "المغنيساوي" لم يفصل القول في مفهوم الكبيرة، ومفهوم الصغيرة كالشيخ "رمضان الحنفي".

ولا يخفى إقرار الشيخ المغنيساوي بأن الأنبياء مع عصمتهم فقد وقعت منهم زلات، ومثل لها بأكل آدم من الشجرة، ووقعت منهم خطايا، ومثل لها بقتل موسى رجلاً من قوم فرعون، فإنه لم يقصد قتله أصلاً بل قصد ضربه بيده ليدفعه عن الإسرائيلي فوقع الضرب قصداً، والقتل خطأً، والقتل زلة، أما لماذا؟ فلأنه يفسر الزلة بمعان من أبرزها:-

الأول: أن الزلة ما يقع خطأ.

الثاني: أن الزلة ما يقع نسيان[٢].

الثالث: أن الزلة ما يقع سهواً.

---

(١) الشيخ أبو المنتهى أحمد بن محمد المغنيساوي الحنفي، شرح الفقه الأكبر، ص١٣٢، طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند بحيدر آباد الدكن، ١٣٢١هـ.

(٢) يدل عليه قول الرسول ﷺ " عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ". أخرجه الإمام ابن ماجة في سننه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكروه والناسي، رقم الحديث ٢٠٤٣، ج١، ص٦٥٩، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية. وقال الألباني حديث صحيح.

الرابع: أن الزلة ما يقع بترك الأولى والأفضل[١].

وإذا نظرنا إلى الوجوه الأربعة التي يجيء فيها لفظ الزلة تبين أنها لم تبلغ حد القتل العمد، ولا شـــبه العمد، وفوق ذلك فإنها إن وقعت لن تكون في محل التكليف بل تكون في محل الســـهو مثلاً، أو تكون بحســـب النســـيان، أو تكون بحســـب الأولى والأفضل.

أما أبو علي القاري(ت:١٠١٤هـ) فله قولٌ يختلف عن ســـابقيه، أما لماذا؟ فلأنه كما قلت استفاد من مجهود غيره، وأنه صف العبارات صفاً يُنسب إليه، فإذا انتهى منها وقف عند الكيفية حتى إذا طالت وقفته انتهى إلى ضـــرورة أن تكون كيفية العصـــمة متناســـبة مع حال المبعوث، ومع توجهات الباحث فإذا خرجت عن هذين فلا يعتد بها[٢].

ثم يقف أبو علي القاري على دليل الكيفية مؤكداً (أن الحكمة الإلهية يظهر فيها ضعف قدر البشرية[٣]، وفي ذات الوقت قوة اقتضاء مغفرة الربوبية)[٤]، ثم يستدل عليها بظاهر قوله ﷺ "وَالَّذِي نَفْسِـــي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"[٥].

دراسة معاصرة[٦]

---

(١) الشيخ أبو المنتهى أحمد بن محمد المغنيساوي الحنفي، شرح الفقه الأكبر، ص١٣٣.

(٢) أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص٩٩.

(٣) هذه الفكرة تمثل بالنســبة لأبي علي القاري مفتاح البحث الذي يصــل من خلاله إلى النتائج التي يرجوها.

(٤) أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠١.

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم الحديث ٢٧٤٩، ج٤، ص ٢١٠٦، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي– بيروت،

(٦) قام بها بلقاســم بن حســن الغالي، أبو منصــور الماتريدي حياته وآراؤه العقدية، ص٢٠٣، طبع بالمطابع الموحدة تونس، دار التركي للنشر ١٩٨٩م.

وهناك دراسة معاصرة قررت أمر الكيفية لدى الماتريدية، ويحسن بي الاستفادة منها باعتبار حداثتها فيذكر ما يلي:-

البين أن مفكري المسلمين وهم يتناولون عصمة الأنبياء كانت لهم طرائق متعددة منها:-

الأولى: ما يتعلق بالوحي والتبليغ، وقد اجتمعت الأمة من أولها إلى آخرها على أنهم معصومون في هذا الجانب بحيث لا يقع فيه كذب أو تحريف، كما لا يقع فيه سهواً وعمداً، لأنهم يبلغون عن الله تعالى أصول دينه إلى خلقه، ولو لم يعصموا في هذا الجانب لوقع ضلال كبير، وهم في التبليغ على ما جاء في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١).

الثانية: ما يتعلق بأحكام التشريع والفتيا، فقد أجمعت الأمة على أنه لا يجوز فيه الخطأ على أي نحو من الأنحاء على سبيل القصد، لأنه لو قصد لكان عامداً الكذب والتقول على الله بما لم يقله، والله تعالى توعدهم بالعقاب الأليم، فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾(٢).

ذهب الفخر الرازي إلى أن معنى الآية ولو افتعل النبي قولاً لصار من الأقاويل المحقرة، فكانت عقوبته ضرب رقبته، وخص اليمين بالذكر لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يلحقه بالسيف لأخذه بيمينه، أما قوله لقطعنا منه الوتين، فالمراد به القوة التي لا تترك شيئاً لمن وقع فيما ذكر(٣).

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٢) سورة الحاقة، الآية ٤٤.

(٣) الإمام/ الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الخامس عشر، ج٣٠، ص٧٠٩.

ولم يقف الفخر الرازي عند هذا المعنى، وإنما جمع الوجوه المحتملة في الآية الكريمة من ناحية التأويل باعتبار أنه مسؤولية الراسخين في العلم، لقولة تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، أو هو في نفس الوقت طبيعة أولي العلم" وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ"، ثم ذكر الرازي مجمل ما ذكر فقال حاصل الوجوه أن النبي(لو نسب إلينا قولاً لم نقله لمنعناه عن ذلك)[2].

ثم ذكر الفخر الرازي وسائل ذلك المنع وكيفيته من الناحية التطبيقية، وذلك عن طريقين:-

الأول: إقامة الحجة فإننا كنا نقيد له من يعارضه فيه، وحينئذ يظهر للناس كذبه فيه فيكون ذلك إبطالاً لدعواه وهدماً لكلامه[3].

الثاني: ما يقع في أفعال الأنبياء عمداً أو سهواً، فهذا الطريق ممكن أن يتفرع إلى فروع، أحدها: من منع العمد فيهما معاً إلا إذا كان الأمر سهواً[4]، والسهو من قبيل

(١) سورة آل عمران، الآية ٧.

(٢) في هذا التوجيه بيان للعصمة حيث يمنع الله النبي من دعوى لم تنزل عليه، وقولاً لم يكلف به وهو الاتجاه السائد لدى من يعرفون العصمة بأنها صرف الله النبي، وصرف قدراته وطاقته عن الوقوع في المعصية.

(٣) تلك الطريقة يمكن تطبيقها على كل مدعي النبوة الكاذبين، بدليل أن الله تعالى يقيض لهم من يعارضهم في دعواهم، ويسقطهم أمام أعين الناس، فيظهر كذبهم. راجع للباحثة فايقة محمد جاد، المتنبئون في الإسلام، رسالة دكتوراه، مخطوط بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية.

(٤) الإمام/ الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الخامس عشر، ج٣٠، ص٧٠١.

ما يقع فيه نفي القصـــد، وبالتالي فعصـــمة الأنبياء تمنعه من الوقوع في الأمر المنهي عنه قصـــداً، وإذا رجعنا إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة في الحديث عن الكيفية وجدناه محافظاً على مكانة النبوة، ولذا فهو منع الصـغائر والكبائر والكيفية بحيث تبقى المكانة اللائقة بالنبوة.

وإذا بحثنا في الكيفية داخل الإطار الماتريدي ألفيناها تعتبر العصـــمة من حيث الكيفية هي تنزيه الله تعالى لأنبيائه عن أن يستحل ذنباً من الذنوب، لأنها ليست ملكة تمنع الفجور، وإنما العصـــمة بحســـب ما ذهب إليه أبو منصـــور الماتريدي من ناحية الكيفية (لا تزيل المحنة، أي لا تجبره على الطاعة، ولا تعجزه عن المعصـــية، بل هي لطف من الله تعالى ، يحمله على فعل الخير، ويزجره عن فعل الشر، مع بقاء الاختيار تحقيقاً للابتلاء)[١]، وهو رأي فيه ميلٌ إلى تحميل الانسـان مهما بلغت منزلته مسؤوليته في الحياة، وأي انسـان أقدر على مواجهة مسؤولياته من الأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام؟ بل وأي أمر أعظم وأجل من تحمل الإنسان لمسؤوليته[٢].

ثالثاً: وقت العصمة

ســـلف الحديث عن الأقوال في عصـــمة الأنبياء من حيث المفهوم، وذكرت التقسـيمات، والانواع لكن بقيت مسـألة تحتاج المعالجة ألا وهي وقت العصـمة، ومادام أمر الوقت قد فرض نفســه على البحث والباحث فلن يكون المراد ســوى الفترة الزمانية، وقد فهم مفكرو المسلمين وقت العصمة، وذهب كلٌ في اتجاه يريد الوقوف عليه، وأبرز تلك الآراء ما يلي:-

الاول: من المولد حتى المنتهى

---

(١) كمال بن أبي الشريف بن الهمام، المسامرة في شرح المسايرة في علم الكلام مع حاشية زين الدين قاسم على المسايرة،ج٢، ص٨١، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثانية ١٣٤٧هـ.

(٢) نقلاً عن رسـالة/ بلقاسـم بن حسـن الغالي، أبو منصـور الماتريدي حياته وآراؤه العقدية، ص٢٠٣، دار التركي للنشر ١٩٨٩م.

ومعناه أن الأنبياء معصـــومون بحفظ الله تعالى لهم ابتداءً من مولدهم حتى المنتهى، وحجة هؤلاء أن

النبي تم اختياره من الله تعالى واصـــطنعه لنفســـه، لقوله تعالى:﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾[1]، ولا يصح أن يصطنع الله لنفسه أحداً ويتركه عرضة للشيطان يتصرف فيه، أو يكون له عليه ســلطان، لأن نور النبوة المودع في ذات الشـــخص يحول بينه والوقوع فيما نهى الله تعالى عنه.

وقد تكون حجة هؤلاء ما ذكره العلامة الســيوطي(من أن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجســاد، وفيه إشــارة إلى حقيقة النبوة والحقائق تقصــر عقولنا عن معرفتها، وإنما يعلمها خالقها ومن أمده بنور الهي) [2]، وهذا النور الإلهي وقف عنده أصـــحاب هذا القول، واعتبروا الأنبياء معصـومين بعصـمة الله إياهم طبقاً لما سـلف، ثم إن حقيقة كل نفس مدرَكة من قبل الإله، وليســت مدركة من قبل خلق الله، ومعنى المدركة المحاطة من كل ناحية، وبناءً عليه يكون النبي قد عصمه الله من وقت مولده، وتستمر عصمته حتى يلقى ربه[3].

ويسـتدل أصـحاب هذا الرأي بحال نبي الله عيسـى ابن مريم عليه السـلام إذ أن أول خطاب صـــدر عنه في طفولته بعد مولده، هو قوله تعالى:﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ

(١) سورة طه، الآية٤١.

(٢) العلامة/ جلال الدين الســيوطي، الخصـــائص الكبرى، المجلد الأول، ص٢٤، تحقيق/ حمزة النشرتي وآخرين، طبعة دار الصحوة، بدون تاريخ.

(٣) ربما يقال إذا كانوا معصــومين من المولد فلماذا لم ينتشــر هذا الرأي إلا على ألســنة القليلين ولم يهتم به الآخرون؟ والجواب أن عصـــمتهم متنوعة في كل مراحلهم الســـنية، والدليل عليه أن الرسولﷺ قبل أن يكون مبعوثاً للخلق تمكنت منه عصمته حتى اشتهر في الناس بأنه الصادق الأمين، وربما يؤخذ من هذا دلالة أخرى، وردت في قوله تعالى:﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾، وهو المعول عليه، فشرح الصدر معناه امتلاؤه بالإيمان، واستمداده من الإله الواحد الديان.

ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾[1]، ومن ثم فعصـــمته كانت منذ ولادته، وهو ظاهر النص القرآني.

(١) سورة مريم، الآية ٣٠.

الثاني: أصحاب القول بالبلوغ

ومعناه أن عصمة النبي يبدأ وقتها منذ بلوغه سن الرشد، وبالتالي لم يقع منهم ارتكاب كفر ولا كبيرة كما لم يقع منهم شيءٌ حرمه الله في تعاليمه، ولو كان من جنس اللمم(١)، واستدلوا عليه بظواهر نصوص شرعية منها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال" قيل للنبي ﷺ : مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ؟ قَالَ: بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ وَنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ"(٢)، وحُمل هذا الأثر على معنى البلوغ ولو أنه بعيدٌ لكنه مقبول متى جاء من تلك الجهة.

واستدلوا أيضاً بما كتبه الشيخ تقي الدين السبكي وهو يتناول قوله تعالى("لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ" ففيه التنويه بالنبي وتعظيم قدره حتى قبل أن يكون رسولاً)(٣)، ومن ثم اعتبروا أن وقت العصمة يبدأ فعلياً من وقت البلوغ، ولم يجوزوا عليهم ارتكاب ما يرتكبه غيرهم قبل النبوة.

وهو اتجاه إن يكن بعيداً بعض الشيء إلا أنه مادام قد تعلق بشرف النبوة فيعتبر مقبولاً، وإذا ما قيس الأمر برسول اللهﷺ ثبت أن عصمته عليه الصلاة والسلام كانت

---

(١) يقوم هذا الرأي على مفاهيم نبه إليها الكثيرون من العلماء، من ذلك ما ذكره الإمام السيوطي نفسه بقوله(إن الله تعالى أخذ على النبيين الميثاق، وسار معهم ميثاق الله من بلوغهم حتى انتهاء حياتهم، واستدل عليه بظاهر قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾سورة الأحزاب، الآية٧. راجع لجلال الدين السيوطي، الخصائص الكبرى، المجلد الأول، ص٢٥.

(٢) أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد، رقم الحديث٤٢١٠، ج٢، ص٦٦٥، تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

(٣) الشيخ/ تقي الدين السبكي، التعظيم والمنه في تحقيق لتؤمنن به ولتنصرنه، ص٨٥، تحقيق الأستاذ/ عبد السميع محمود حسن، طبعة القاهرة.

منذ مولده، ويستدل عليه بدلائل كثيرة منها ما رواه أبو هريرة قال، قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: "وآدم بين الروح والجسد"(١)

أخرج الطبراني عن أبي مريم قَالَ: أَيُّ شَيْءٍ كَانَ مِنْ أَمْرِ نُبُوَّتِكَ؟ فَقَالَ:" أَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنِّي الْمِيثَاقَ كَمَا أَخَذَ مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ, وَتَلَا ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾, وَبَشَّرَ بِي الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ , وَرَأَتْ أُمُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَنَامِهَا أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ بَيْنَ رِجْلَيْهَا سِرَاجٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ "(٢)

الثالث: قبل النبوة أو معها

ومعناه أن العصمة للنبي تبدأ من وقت النبوة أو قبلها بقليل، وحجتهم في ذلك أن كل نبي إنما يقوم بمهمته وهو في ذات الوقت محل قيادة يجب اتباعه في كل ما يفعل، فلو صدر عنه شيءٌ من المعاصي أياً كان نوعها حتى لو كان من اللمم فقد صار فعله أمراً يجب اتباعه، لقوله تعالى:﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٣).

وهذا الرأي عليه كثيرٌ من العلماء، واستدلوا عليه بوجوه:-

الوجه الأول: أن البني لو لم يكن معصوماً من الله حَال تكليفه بالنبوة لكان ميالاً لاقتراف، الذنوب، والمعاصي، ولما خلا عنه الشيطان، كيف وهو مبعوث من قبل

(١) أخرجه الإمام الترمذي في الجامع الكبير، كتاب أبواب المناقب، باب في فضل النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث ٣٦٠٩، ج٦، ص٩، تحقيق/ بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي بيروت١٩٩٨م.

(٢) أخرجه الإمام الطبراني في المعجم الكبير، كتاب مسند من يعرف بالكنى، باب أبو مريم الغساني جد أبي بكر بن أبي مريم، رقم الحديث ٨٣٥، ج٢٢، ص٣٣٣، تحقيق/ حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

الرحمن، والله تعالى حذر الشـــيطان من الاقتراب للنبي في قوله تعالى:﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ (١)، ومحل الشاهد أن المراد بالعباد هنا هم الأنبياء والمرســـلون بالدرجة الأولى، ثم يأتي بعدهم أولياء الله وأهل العرفان به جل علاه.

كما احتجوا بأن الأنبياء من عباد الله المخلصين قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾(٢)، ولا يكونوا من الأخيار إلا من كان معصـــوماً من الوقوع في أمر يخالف تعاليم الله، كذلك احتجوا بحجج عقلية واستندوا فيها إلى ظواهر نقلية.

الوجه الثاني: أن النبي إذا لم يكن معصـــوماً وقت النبوة أو قبلها بقليل، فماذا يكون الموقف لو اقترف أمراً يقلل من قيمته في نظر الناس؟ هل يتبعونه أم يســـخطون عليه؟ واســـتدلوا عليه بظاهر قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾(٣)، ومحل الشـاهد أن الاصـطفاء الإلهي متى تم فقد عُصم النبي من الوقوع في معصية صغيرة كانت أم كبيرة.

الرابع: منذ البعثة

ومعناه أن النبي إنما تُجمع له العصـــمة من الله تعالى، ولم يصـــدر عنه ذنب صغر أو كبر ابتداءً من
وقت البعثة، واستدلوا عليه بوجوه:-

الأول: لو لم يكونوا معصومين لصدر الذنب عنهم، ولو صدر لتساووا مع عصاة الأمة، أو كانوا أقل درجة منهم، فكيف يدعونهم إلى الله وهم خارجون عن تعاليم الله،

(١) سورة الحجر، الآية ٤٢.
(٢) سورة ص، الآية ٤٧.
(٣) سورة الحج، الآية ٧٥.

قال الفخر الرازي(ذلك غير جائز، أما لماذا؟ فلأن درجة الأنبياء تكون في غاية الجلال والشرف، فلو صدر الذنب عنهم لكان أفحش، ولا يجوز أن يكون النبي أقل حالاً من الأمة بالإجماع)[١].

الثاني: سقوط الشهادة

ومعناه أن النبي إذا لم يكن معصوماً وقع في الفسق أو اقترب منه فترد شهادته ولا تقبل، لقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[٢]، ولو وقع النبي في دائرة بعيدة عن العصمة لكانت شهادته مردودة، كيف وقد أثر أن رسول اللهﷺ كان معروفاً بالصادق الأمين حتى قبل البعثة.

الثالث: محاكمته على فعله

ومعناه أن النبي لو لم يكن معصوماً واقترب من فعل منكر فقد وجب زجره، بل إيذاءه على فعل يحتاج العقوبة فيكون إيذاؤه مشروعاً، كيف والله سبحانه وتعالى بَيّن ان الذي يقترب من الرسول ﷺ بالإيذاء تقع عليه اللعنة في الدنيا والآخرة، وينتظره عذاب شديد، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾[٣].

الرابع: انكار شهادته على أمته

ومعناه أن كل نبي يشهد أمام الله تعالى بأنه بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة، لقوله تعالى:﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثاني، ج٣، ص١٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية ٦.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٥٧.

ٱلْغُيُوبِ ﴾[1]، فلو كانوا غير معصومين لوقعوا في الفسق، وردت شهادتهم، كيف والله سبحانه وتعالى جعلهم شهداء على الناس في قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

ويرى الماتريدية أن العصمة ثابتة ومتحققة للأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام حتى سيدنا محمدﷺ ، وعند أبي علي القاري قبل النبوة وبعدها على الأصح، وهم في ذات الوقت مؤيدون بالمعجزات الباهرات، والآيات الظاهرات، ثم ينتهي إلى القول (بأن ثبوت الاجمال لا ينافي تفصيل الأحوال)[3].

ويؤكد أن العصمة للأنبياء والمرسلين تكون قبل البعثة وبعدها وكأنه قصد التعبير عن ذلك بكل ما يستطيعه بدليل أنه وهو يعلق على منظومة بدء الأمالي[4]، فيقول(الأنبياء عليهم السلام معصومون عن كل أنواع الكفر مطلقاً قبل البعثة وبعدها بالإجماع، وعن سائر الكبائر عمداً باتفاق العلماء المعتبرين)[5].

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٠٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(٣) الشيخ/ أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠١.

(٤) منظومة للعلامة سراج الدين علي بن محمد بن عثمان الأوشي المتوفي٥٦٩هـ، وهو حنفي ماتريدي على الصحيح.

(٥) الشيخ/ نور الدين علي القاري، ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي، ص٨٠، طبعة دار البيروني الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

وبناء عليه يكون الثابت وقوع العصـــمة لهم على الدوام، لا فرق بين كونها قبل النبوة أو بعدها وهو الذي رجحه الشيخ في استدلاله.

بل إنه وهو يتحدث عن زمان العصمة ربما انتقل إلى تفصيل القول في المسألة معتمداً على ما ذكره الشـــيخ "الأوشـــي" فقال ومحله بعد البعثة كما يشـــير إليه تعبير "الأوشي" بالأنبياء.

أما سهواً فجوز وقوعه منهم عند الأكثرين إذ لا إرادة فيه ولا قصد له وهي مسألة منبثة في مؤلفات الشيخ "القاري"، ثم استدرك الشيخ في تفصيلاته ما يتعلق بالصغائر(فما كان منها دالاً على الخسة[1]، كسرقة لقمة فلا خلاف في عصمتهم منه مطلقاً، وما لا يدل على الخسة فالمختار لجهور أهل السنة عصمتهم عن عمده، وأما سهوه فنقل ابن جماعة أن المعصية ضد الطاعة، والأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر عمداً وسهواً[2].

والســـؤال الآن هل يمكن القول بأن الملا القاري قد اســـتفاد ما يتعلق بعصـــمة الأنبياء من سابقيه فيكون متأثراً بهم، أم أنها من بناة أفكاره، ومن ابداعاته؟

والجواب: ان مفكري المســـلمين يســـتفيد بعضـــهم من بعض، بناءً على قاعدة تراكمية العلم بدليل أن الشـيخ "محي الدين بن بهاء الدين الحنفي(ت: ٩٥٦هـ)، وكانت وفاته قبل الإمام القاري بثماني عشرة سنة، قد ذكر أن عصمة الأنبياء تكون مطلقاً عن

(١) من الثابت أن الخسة صفة نقص لدلالتها على الحقارة والرزائل يقال خس فعله وقوله ورأيه يريدون أنه خف وزنه فلم يعدل ما يقابله، والخســاســـة هي الحالة التي يكون عليها الخســيس. المعجم الوجيز، باب الخاء، ص١٩٥، طبعة مجمع اللغة بالقاهرة ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، والنقص البشـري الأنبياء منزهون عنه لأنهم أعلى الناس خلقاً وأكملهم خُلقاً.

(٢) الشيخ/ نور الدين علي القاري، ضوء المعالي على منظومة بدء الأمالي، ص٨٠.

الشـرك، أما لماذا؟ فلمنافاة الشـرك للمتبوعية في التوحيد، وانعقاد الإجماع عليها، وكذا الكبيرة فانعقد الإجماع عن عصمة الأنبياء من الشرك والكبيرة مطلقاً[١].

ثم يواصـل حديثه مسـتدلاً على كل جانب من جوانب العصـمة: فيقول(وأما عصمته عن تعمد الصغائر فثابتة بالبرهان[٢]، الذي دل على عصمة النبي مطلقاً)[٣]، واسـتدل عليها بالأحاديث الدالة على أنه صـلى الله عليه وسـلم أسـلم قرينه من الجن، وأنه جعل الله للشـيطان عليه سـبيلا، بجانب ما ورد من فضـل الاقتداء به على الإطلاق[٤]، وكلها تدل على عصمة الانبياء من تعمد الصغائر، ثم الصحيح أنه عليه السلام أنه ما

كان متبعاً قبله قبل البعثة ولا مكلفاً من شرع سابق حتى تكون مخالفته له معصية[٥].

□

(١) هذا يوشـك أن يكون قاعدة اتفاقية بين جميع مفكري المسـلمين الذين يعتد بهم، ومن يتبع أقوال الماتريدية في المسألة يجد أنها ناطقة بهذا الذي قيل.

(٢) البرهان المراد به هنا ما يتعلق بأحكام العقل الثلاثة(الوجوب، الجواز، الاستحالة).

(٣) الشـيخ/ محي الدين محمد بن بهاء الدين، القول الفصـل شـرح الفقه الأكبر، ص٣٠٧، مكتبة الحقيقة شارع دار الشفقة، استانبول، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، الطبعة الأولى.

(٤) وردت آيات قرآنية تؤكد ضـرورة الاقتداء برسـول الله ﷺ في كل شـيء يتعلق بالتكاليف، يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ سورة الممتحنة، الآية ٦.

(٥) الشيخ/ محي الدين محمد بن بهاء الدين، القول الفصل، شرح الفقه الأكبر، ص٣٠٧.

رابعاً: موضوعاتها(١)

لما كان موضوع أي علم هو ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية كبدن الإنسان لعلم الطب، فإنه يبحث فيه عن أحواله من حيث الصحة والمرض، وكالكلمات لعلم النحو فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء(٢).

وبناءً عليه فإن موضوع عصمة الأنبياء هو ما يتعلق بالوقوع في الأخطاء على سبيل القصد والاختيار، يستوي في ذلك أفعال الطاعات، وأفعال المعاصي، والأنبياء معصومون عن المعاصي لكن دار بين العلماء طريق بان فيه أن موضوع العصمة يدخل في أمرين على وجه الخصوص.

الأول: أوامر الشرع وتبليغ الأحكام.

الثاني: ارشاد الأمة، وهذا يجئ من ناحيتين الأولى: ناحية العمد، والثانية: ناحية السهو.

ذهب شيخ الماتريدية إلى أن الأنبياء معصومون عن الكذب(٣) على سبيل القصد والاختيار، أما ما يتعلق باسم الكذب كالحال الذي وقع فيه خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال ما حكاه القرآن الكريم قال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا

---

(١) سلف الحديث عن وظائف النبوة، وجاءت درجاً تحت عنوان كيفية العصمة، أما هنا فسأتناول ما يتعلق بالموضوع حتى لا يكون هناك تفكير في القول بوجود تكرار لأن كل واحد منهما جاء على ناحية بذاتها.

(٢) السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، باب الميم، ص٢١٢، طبعة الحلبي ١٣٥٧هـ، ١٩٣٨م، ويليه رسالة في اصطلاحات رئيس الصوفية سيدي محي الدين بن عربي الواردة في كتابه الفتوحات الإسلامية.

(٣) الكذب آفة من آفات اللسان المعبرة عما في القلب، لأن اللسان قد يكذب ولا يُنسب كذبه للقلب، وكثيراً ما يرد هذا في القرآن الكريم، قوله تعالى:﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾سورة النحل، الآية ٦٢.

قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

ومحل الشاهد ما ذكر من كذب خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، والمنفي عنه هو حقيقة الكذب وليس اسمه، أما لماذا؟ فلأن السنة المطهرة قد بينت إمكانية أن يقع المرء في الكذب، ولا يُحسب عليه كذب، يدل عليه الحديث الشريف " رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْكَذِبِ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْحَرْبِ، وَفِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَقَوْلِ الرَّجُلِ لِامْرَأَتِهِ "(٢).

أخلص مما سلف إلى أن موضوع العصمة يدور في واحد من أربعة على سبيل التصنيف باعتبار الكبائر، والصغائر وما يدور في تسمياتها، وسوف أعود إلى ما يتعلق بها من ناحية التفصيل: ١- الكبائر، ٢- الصغائر، ٣- الكفر، ٤- القبائح، وما كان من هذا القبيل.

والواضح أن عصمة الأنبياء عليهم السلام من حيث الموضوع باعتبار الاعتقاد وغيره، تدور في أقسام أربعة:

الأول: ما يقع في باب الاعتقاد.

ومعناه اعتقادهم الكفر والضلال، فإن ذلك غير جائز منهم ولا واقع بينهم، أما لماذا؟ فلأنهم لو وقعوا فيه وهو محرمٌ ما كان الله قد عصمهم، ولأنهم قد منعوا منه، فقد

(١) سورة الأنعام، الآيات(٧٩-٧٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، كتاب الملحق المستدرك من مسند الأنصار، باب حديث أم كلثوم بنت عقبة أم حميد بن عبد الرحمن، رقم الحديث ٢٧٢٧٨، ج٤٥، ص٢٤٩، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

ثبت أن الله عصـــمهم منه(لأن الله تعالى قد أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم، من غير تفضيل إلا فيما ثبت اختصاصهم به عن الأمة، وحينئذ فكل ما صـــدر منهم فنحن مأمورون به، وكل مأمور به فهو طاعة، لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء)[١].

ذهب الإمام أبو منصـــور الماتريدي(ت:٣٣٣هـ) إلى (أن الأنبياء والمرســـلين معصـومون عن الكبائر)[٢]، أما الصـغائر فإنه يجوزها سـهواً، وقد لا ينبه إليها لحكمة يعلمها الله.

وذهب القاري إلى أن موضـوع العصـمة شـاملٌ للصـغائر والكبائر[٣]، وما يلحق بها، ومن ثم فلا يكون الوقوع في باب الاعتقاد منهم أبداً، لان الله لو تركهم وانفســـهم من غير حفظ لهم فربما وقعوا في أمور لا تدخل تحت الطاعة، فيكون النبي واقعاً في مُحرم، وهذا يتنافى مع العصمة التي جعلها الله تعالى للأنبياء.

الثاني: ما يقع في باب التبليغ.

يرى أبو منصـور الماتريدي أن ما يقع في التبليغ يجب تنزيه الأنبياء والمرسـلين عنه، أما لماذا؟ فلأنهم لو لم يكونوا معصـــومين عنه لم ينكفوا عن الكذب، والكاذب لا يصـلح للرسـالة)[٤]، من حيث إن الكذب ليس فضـيلة بل توعد الله الكاذب بعقاب شـديد يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ

(١) العلامة الدردير، شـــرح الخريدة البهية، ص٤١٨، ومعه حاشـــية العلامة أبي الســـعود صـــالح السباعي.

(٢) أبو منصـــور محمد بن محمد الماتريدي الحنفي السـمرقندي، شـرح الفقه الأكبر، ص٣٩، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن ١٣٢١هـ.

(٣) أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٠.

(٤) أبو منصـــور الماتريدي، شـــرح الفقه الأكبر، ص٣٩، عني بطبعه ومراجعته/ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، طبع على نفقة الشئون الدينية بقطر، ١٣٢١هـ.

الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا"(١).

أما الشيخ القاري فإنه يرى ضرورة عصمة الأنبياء عن الكذب في التبليغ، لأنهم لو كذبوا لوقعوا في محرم قبيح، والله لا يأمر بالقبائح(٢).

الثالث: ما يقع في باب الأحكام والفتيا.

أما ما يتعلق بالأحكام والفتيا فقد أجمع المسلمون على أنهم لا يجوز خطأهم فيه على سبيل التعمد، لأنهم لو أخطأوا فيه عمداً، واستجاب الناس لهم وقعوا جميعاً في الخطأ، وليس من سبيل النبوة الوقوع في ما يتعلق بالأحكام حتى على سبيل الخطأ أو السهو.

أما ما يقع منهم فيه على سبيل السهو فجوزه بعضهم، ورفضه آخرون، وحجة المجوزين أنهم ما داموا قد سهو والله سبحانه وتعالى لا يتركهم على سهوهم، وإنما ينبههم فلا تَعدوا أن تكون المسألة صورة مما وقع على لآدم عليه السلام فيما أكل من الشجرة على سبيل السهو أو النسيان، وربما الاجتهاد وسماه القرآن الكريم نسياناً، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾(٣)، والواضح أن الآية الكريمة أثبتت أمراً، ونفت أمراً، أما الأول الذي أثبتته فهو وقوع النسيان لآدم عليه

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم الحديث ٢٦٠٧، ج٤، ص٢٠١٣.

(٢) أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٠.

(٣) سورة طه، الآية ١١٥.

السلام دليل قوله فنسي[1]، ولم يكن النسيان تجاهلاً وإنما جاء على الصورة التي رسمتها الآيات القرآنية.

وأما حجة الرافضين فقائمة في أن أمر الفُتيا كأمر الاعتقاد لا يصح أن يقع فيه السهو ولا النسيان لأنه إن وقع فيه سهو أو نسيان فسد أمره وضاع خبر النبوة، وهي كلها حججٌ عقلية لا تعدوا أن تكون وجهة نظر لا تعتمد على أصول ثابتة.

الرابع: وهو الذي يقع في أفعالهم وأقوالهم الجبلية كالقعود، والقيام، والمشي، فإننا غير متعبدين بذلك.

الموضوع الأول: الكبيرة[2]

المشهور أن الماتريدية في اقتدائهم بشيخهم يؤكدون أن الأنبياء منزهون عن الصغائر، والكبائر، والكفر، والقبائح على وجه الإجمال، وعندما جاء الحديث عن تفهيم هذه وتلك بدت منهم اتجاهات وهم الذين عرفوا الصغائر، وعرفوا الكبائر، وعرفوا الكفر، وعرفوا القبائح، وذكروا أن الكبائر هي التي تشمل جميع المعاصي، ومنها الكفر، وقد خُص بأنه أكبر الكبائر، واستدل الشيخ القاري على ذلك بقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[3]، وبالتالي فالكفر هو أكبر الكبائر وأعظمها.

(١) النسيان جبلة في بني الانسان ولعله من الحكمة الإلهية، بل ذهب البعض إلى أن الانسان سمي به على أساس النسيان طبقاً للقاعدة اللغوية المشتركة بين لفظي الانسان والنسيان.

(٢) هذا الموضوع باعتبار رعاية الكبائر والصغائر من حيث المفهوم.

(٣) سورة النساء، الآية ٤٨.

أما القبائح فقد ذكر الشيخ القاري أنها كل الفواحش، وهي أخص من الكبائر في مقام التغاير[١]، واستدل عليه، بقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾[٢]، فجاء التغاير بين لفظي كبائر الإثم والفواحش، وذكر العلامة القاري المراد بها (القتل[٣]، وأكل مال اليتيم[٤]، والزنا، والسرقة[٥]، وقذف المحصنة[٦]، والفرار من الزحف، والنميمة، وأكل الربا، إلى آخر ما ذكر حتى ظلم العباد وقصد الفساد في البلاد)[٧]، ومن ثم فالفواحش ليست محصورة وكذلك الكبائر.

لكن ما هو مفهوم الكبيرة

---

(١) مقام التغاير في اللغة هو الذي يفصل بين المتقاربات حتى تصير كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى، فيطلق عليه اسم مقام التغاير مراداً على ناحية لغوية، كالتغاير بين لفظي الكرم والسخاء.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣٧.

(٣) قال تعالى:﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ سورة الإسراء، الآية ٣٣.

(٤) قال تعالى:﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

(٥) قال تعالى:﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ سورة المائدة، الآية ٣٨.

(٦) قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾سورة النور، الآية ٤.

(٧) الشيخ علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٠.

نقل الشيخ القاري في مفهوم الكبيرة وحدّها وجوهاً، نسبها إلى أصحابها نُجملها فيما يلي:-

الأول: أن الكبيرة هي كل ما نهى الله عنه على وجه الإجمال(١)، ويؤيده ظاهر قوله سبحانه:﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾(٢).

فدل الأمر على أن الكبيرة هي كل ما نهى الله عنه، سواء أكان هذا المنهي عنه مما جاء ذكره في بعض الأحاديث المتناولة للكبيرة، أو الكبائر على وجه الإجمال، أو الحصر، من ذلك قوله ﷺ " اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: " الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ"(٣).

الثاني: أن الكبيرة هي كل ما جاء في القرآن الكريم مقروناً بذكر الوعيد، وإلى هذا الرأي ذهب جمعٌ من الصحابة أبرزهم الحسن وسعيد بن جبير، والضحاك(٤)، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى:﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٥)،

(١) نسب الشيخ القاري هذا الرأي إلى ابن سيرين رضي الله عنه.

(٢) سورة النساء، الآية ٣١.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، رقم الحديث ٦٨٥٧، ج٨، ص١٧٥، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

(٤) الشيخ أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٠.

(٥) سورة النور، الآية ٢.

ومنها قوله تعالى في آخر آية المواريث﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[1]

والمراد أن الكبيرة التي جاء النهي عنها، والأخرى التي جاءت في القرآن مقرونةً بالوعيد، قد ظهر أمرهما، أما حصرهما فما زال الباب مفتوحاً إذ الضابط واضح.

الثالث: هل الكبائر محصورات في سبع كما جاء به الحديث الشريف" اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: " الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ"، أم أنها غير ذلك، والجواب ما ذكره سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس رضي الله عنهما كم الكبائر أسبع هي، قال إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الاصرار [2].

٢- كبيرة ما دون الكبيرة[3]

فصل الشيخ القاري القول في المسألة على وجوهها المتنوعة:-

الأول: كبيرة من ترك الفرض أو الواجب بلا عذر ولو مرة واحدة.

الثاني: كبيرة ما دون الكبيرة وهي ارتكاب الكراهة والاصرار على ترك السنة.

الثالث: الصغيرة وهي ارتكاب الحرام، وترك السنة مرة بلا عذر تساهلاً، أو تكاسلاً عنها[4].

ونبه شارح الطحاوية إلى أن هناك فروقاً بين الكبيرة وما دونها، والصغيرة وما هو أعلى منها، وها أنا ذا أضع كل واحد في رأس بذاتها على النحو التالي:-

١- ما يلحق بالصغائر

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤.

(٢) الشيخ/ أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٠.

(٣) فكرة إطلاق اصطلاح كبيرة ما دون الكبيرة يعتبر من اجتهادات الماتريدية طبقاً لتفصيلاتهم الفقهية وهو أمرٌ يَسهل تفهمه.

(٤) الشيخ/ أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٠.

يقول شارح الطحاوية إذا اقترن بالكبيرة من الحياء والخوف والاستعظام لها فإنه يلحقها بالصغائر.

٢- ما يلحق بالكبائر

ذكر شارح الطحاوية أن الصغيرة إذا اقترن بها من قلة الحياء وعدم المبالاة، وترك الخوف والاستهانة بها فإنها تُلحق بالكبائر(١).

نبه الشيخ القاري إلى سبب ذلك فقال(مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدرٌ زائد على مجرد الفعل، والانسان يعرف ذلك من نفسه وغيره)(٢)، أخلص مما سلف إلى أن الشيخ القاري كان له جهدٌ كبير ومحاولة جادة للتوفيق بين الآراء مع التركيز على ما يراه قائماً في نطاق النص الشرعي.

(١) ابن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، ج١، ص٤٥١، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط وعبد الله التركي، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) الشيخ أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠١.

الفصل الثالث: دلائل العصمة، وغاياتها

سلف الحديث عن العصمة من حيث المفهوم، والكيفية، بجانب الموضوعات، وها أنا ذا أنتقل إلى الحديث عن دلائل العصمة وغاياتها، بحيث ينتهي الأمر، ويتضح موقف أبي علي القاري مما يتعلق بالعصمة المفروضة للأنبياء على الناحية العقدية، وسوف أتناول ما يلي:-

أولا: دلائل العصمة

قبل ذكر دلائل العصمة أود تعريف الدليل في الاصطلاح[١] هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء أخر، فالأول هو الملزوم، والثاني هو اللازم، وهو العلم بشيء أخر، وحقيقة الدليل هو ثبوت الأوسط للأصغر، واندراج الأصغر تحت الأوسط[٢]، يستدل أبو علي القاري على العصمة بدلائل منها:-

١- الأدلة التأييدية

وهي التي يتأيد بها أمر العصمة، والثابت للأنبياء والمرسلين على سبيل الوفاء والاكتمال والثابت أن الله تعالى عصمهم عن الوقوع في المعاصي أبدا، ومن مظاهر ذلك أنه أيدهم بالمعجزات الباهرات، والمعروف أن المعجزة مع النبي هي لسان صدقه فيما يبلغ عن ربه (وهي ظهور أمر بخلاف العادة في دار التكليف لإظهار صدق

(١) الدليل في اللغة هو المرشد أو ما به الإرشاد حسب ما ذكره السيد الشريف الجرجاني، في التعريفات، ص٩٣.

(٢) السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، باب الدال، ص٩٣، طبعة البابي الحلبي ١٩٣٨م، ١٣٥٧هـ.

مُدعي النبوة مع نكول من يتحدى به عن معارضـــته بمثله)[١]، ويكون ذلك على التأييد بحيث لا ينقطع أمره أبداً.

أ- الأدلة النقلية

يعرف الدليل النقلي بأنه ما كانت مقدماته نقلية واردة في الكتاب أو الســـنة أو هما معاً، ولو من حيث ظاهر النصوص، وبالتالي فالعصمة من حيث معناها ثابتة في القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية المطهرة.

١- من القرآن الكريم

ذلك قوله جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٢]، ومحل الشاهد أن عصمة الله للنبي إنما تكون مما يفعله كل الناس فلا يكون مثلهم، وإنما يمتاز عليهم وينفصل عنهم، ولابد أن يكون أمر العصمة سارياً على كافة أنماط الحياة، لأن العصمة للنبي على الكمال والتمام.

٢- من السنة النبوية المطهرة

سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ. فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ يَا ابْنَ أَخِي لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَهُ عَلَى مَنْكِبِكَ دُونَ الْحِجَارَةِ. قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبِهِ فَسَــقَطَ مَغْشِــيًّا عَلَيْهِ،

(١) الإمام/ أبو المعين النسـفي الماتريدي، تبصـرة الأدلة في أصـول الدين، ج١، ص٦٨٩، تحقيق/ محمد الأنور حامد عيســـى، المكتبة الأزهرية للتراث والجزيرة للنشـــر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١١م.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٧.

قَالَ: فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ عُرْيَانًا"(١)، وبالتالي فإن العصمة من الصغائر قد صاحبته وإلا فما معنى أنه ما رُئي بعد ذلك اليوم عرياناً.

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا بُنِيَتِ الكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلاَنِ الحِجَارَةَ، فَقَالَ العَبَّاسُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ، فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: أَرِنِي إِزَارِي فَشَدَّهُ عَلَيْه"(٢).

وروي" أن النبي ﷺ سُئل عن عدد الانبياء فقيل له: أيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ؟ قَالَ: "آدَمُ" . قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ: أَوَ نَبِيٌّ كَانَ آدَمُ قَالَ: " نَعَمْ، نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا آدَمُ قُبْلًا ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ وَفَّى عِدَّةُ الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: "مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا"(٣)، على وجه الإجمال، من حيث يكون ذلك هو المراد.

مما سلف ذكره في القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة، تبين أن العصمة للنبي إنما تكون مصاحبة له من ولادته، وهو الرأي الراجح، بحيث إذا صدر منه شيء يخالفها فإنه لا يكون محسوباً عليها على سبيل القصد، وإنما يكون محمولاً على أحد وجوه الحمل الأربعة وهي" التأويل، أو الاجتهاد، أو ترك الأولى، أو انعدام الإرادة".

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب الاعتناء بحفظ العورة، رقم الحديث ٣٤٠، ج١، ص٢٦٨، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، رقم الحديث ١٥٨٢، ج٢، ص ١٤٦.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، كتاب تتمة مسند الأنصار، باب حديث أبي أمامه الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو، رقم الحديث ٢٢٢٨٨، ج٣٦، ص٦١٨.

ب-الأدلة العقلية

الدليل العقلي هو ما كانت مقدماته كلها عقلية يقينية، أو ظنية ظناً راجحاً، وذلك يتحقق من وجوه:-

الأول: قائم على الفعل.

ومعناه أنه لو لم يكن الرسول معصوماً لوقع في فعل وقع فيه غيره بغض النظر عن وصفه بالصغيرة أو الكبيرة، ولو فعل لكان منسوباً إليه محكوماً عليه، لكن لم يفعل مما يصدر عنهم ولم يثبت عليهم(١).

الثاني: سقوط الاختيار.

ومعناه أن كل نبي مختارٌ من الله تعالى ومصنوعٌ بيده فلو لم تتحقق له العصمة التي للأنبياء لكان كسائر الناس، ممكن أن يفعل ما يفعلونه فيصير كأحدهم، كيف وهو مختار من قبل ربه ومأمور بسلوك الحق من غير أن يسقط فيه أو يتردى.

الثالث: ثبوت الصدق.

ومعناه أن النبي المبلغ عن الله صادقٌ في كل ما يجئ به فلو لم تجب العصمة لهم لظهرت منهم أفعال دالة على الكذب فتنقص من قدرهم، ولو فعلوا كذباً ولو مرة واحدة لما صدقهم الناس بل نفروا منهم، لكن الرسولﷺ اجتمع الناس إليه لحظة رجوعة من المعراج وسألوه وصدقوه وقالوا ما جربنا عليك كذباً، فكان ذلك بمثابة الشهادة العقلية الوثائقية التي تعبر عن أحد أركان الدليل العقلي.

(١) هذا الوجه روعي فيه فرضية وقوعهم فيما يقع فيه أسافل الناس قصداً من الكبائر والصغائر.

٢- الدلائل الثبوتية

ومعناه أن كل نبي أمضـــى شـــطراً من حياته كواحد من الناس(١) لكنه لم يكن كأحدهم فيما يفعلون بل كان أعلى منهم ومن ثم فلم يشـــاركهم في كل ما عاشـــوا عليه من شـــرب خمر، وقتل، وزنا، وارتكاب المحرمات، ولذا صـــارت الأدلة الثبوتية من الشهادات الوثائقية، التي تكون للنبي عند دعواه النبوة.

من ذلك ما روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُـــولُ اللهِ صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ:" لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْـــوًا عُضْـــوًا"(٢)، من ثم صارت تلك الشهادات الوثائقية بمنزلة الدلائل المتعددة التي تثبت النبوة وتؤكدها.

٣- الدلائل الاجتماعية

ومعناها أن الرســـول ﷺ قد حفظه الله من أيدي من أراد به ســـوءًا، وصـــارت شـــهادات المجتمع له بأنه نبي، ومن ذلك ما روي عن أســـماء بنت أبي بكر قالت لما نزلت تبت يدا أبي لهب وتب أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلِ بِنْتُ حَرْبٍ وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ: مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَـــيْنَا، والنبي ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْـــجِدِ

---

(١) الدليل عليه ما ذكره القرآن الكريم في أخوة بعض الأنبياء لمن أرســـل إليهم، ولو على ســـبيل التعريف من ذلك، قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾سورة هود، الآية٥٠.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله تعالى" إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى"، رقم الحديث ٢٧٩٧، ج٤، ص٢١٥٤.

وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ فَلَمَّا رَآهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي» وَقَرَأَ قُرْآنًا فَاعْتَصَمَ بِهِ، فَوَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي. فَقَالَ: لَا وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ. فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا"(١)، من جملة ما سبق تبين أن أدلة العصمة للأنبياء متعددة ومتنوعة إلى حد كبير(٢).

ولا يخفى أن الشيخ أبا علي القاري قد لمس العصمة من كافة جوانبها، ونقل عن شيوخه ما نقل، ثم انتهى إلى القول بأن (الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكذب خصوصاً فيما يتعلق بأمر الشرع، وتبليغ الأحكام، وإرشاد الأمة عمداً، وذلك بالإجماع، وأما سهواً فعند الأكثرين ففي عصمتهم عن سائر الذنوب تفصيلٌ هو أنهم معصومون عن الكفر قبل الوحي وفي ظله بالإجماع، وعن تعمد الكبائر عند الجمهور، وتجوز سهواً عند الأقلين)(٣).

أما الصغائر فتجوز عمداً عند الجمهور، وتجوز سهواً بالاتفاق إلا ما يدل على الخسة، والمحققون اشترطوا أن ينبهوا عليه فينتهوا عنه هذا كله بعد الوحي، أما قبله فلا دليل على امتناع صدور الكبيرة، (وما نقل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مما

(١) أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، باب ومن تفسير سورة بني إسرائيل بسم الله الرحمن الرحيم، رقم الحديث ٣٣٧٦، ج٢، ص٣٩٣، وراجع للإمام السيوطي، الخصائص النبوية الكبرى، المجلد الأول، ص٢٨٦.

(٢) لقد قام الشيخ السيوطي بتسجيل جوانب العصمة للرسولﷺ بأدلتها في كتابه الخصائص النبوية الكبرى، المجلد الأول، ص٢٨٣ إلى ص٢٩٢، وعددها وفصل القول فيها.

(٣) أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٤.

يشـعر بكذب أو معصـية بطرق ثابتة فمصـروف عن ظاهره إن أمكن، وإلا فمحمولٌ على ترك الأولى أو كونُه قبل البعثة)[١].

ثانياً: الغايات من العصمة

١- بيان أوجه امتياز النبي ﷺ في ذاته

ومعناه أن النبي حين يقع له الاصطفاء الإلهي فإنما يكون ذلك من أول أمره، ربما قبل أن تحمل أمه به، فيكون الرسول مميزاً عن غيره بهذا الاعتبار، ولا يمنع ذلك من كونه روحاً وجسداً، وفي ذات الوقت هو مبلغٌ عن الله، قال تعالى:﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[٢]

ذكر الشـيخ زاده (ت:٩٤٤هـ) أن تلك الخاصـية أكد عليها مشـايخ الحنفية وهي (أن الرسـل والأنبياء عليهم السـلام حتى بعد انتقالهم من هذه الدار رسـلٌ وأنبياء حقيقةً أو في حكمها)[٣]، فلا ينقطع عنهم الوصف بالنبوة أبداً.

وبناءً عليه يكون النبي الموصـوف بالعصـمة متميزاً عن غيره في هذا الجانب، فإذا أضـفنا إلى ذلك ما ذكره الشـيخ القاري (من أن العصـمة فضـل من الله ولطف به بحيث يبقى وجـه اختيارهم بعد العصـــمة في الإقدام على الطـاعـة والامتنـاع عن المعصية)[٤].

---

(١) الإمام النسفي، العقائد النسفية، ص٢١٥،٢١٦، بتصرف يسير. وراجع لأبي علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٤.

(٢) سورة النساء، الآية ١٦٥.

(٣) الشيخ/ عبد الرحيم بن علي الشهير بالشيخ زادة، نَظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل الذي وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشـــعرية في العقائد، ص٤٩، الفريدة الثالثة والثلاثون، المطبعة الأدبية بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣١٧هـ.

(٤) الشيخ/ أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٥.

قال الشيخ السيوطي في تلك الغاية (إن رسول الله ﷺ سمع صريف الأقلام بالمستوى، وكتب الرحمن اسمه على العرش إذا استوى، وآذن باسمه في المبتدأ في الأرض وفي السما، ويوم النشأة الأخرى، سلم عليه الحجر والشجر ودر له ضرع الجذعة بالدرر، وحن الجذع لفراقه حتى خار خوار البقر، ونبع الماء من أصابعه ومن الأرض انفجر، وانشق له وكان يناغيه في مهده القمر، وحي له الميت، وأمنت لدعوتها أسكفة الباب وحوائط البيت، وأشار إلى السحاب بالغيث، فأجاب من غير ريث، صلى الله عليه وسلم)[1]

لا شك أن تميز النبي في ذاته هو إحدى العلامات الدالة على كونه نبياً، وفي ذات الوقت تؤكد الغاية من كونه معصوماً لأن الله تعالى جرت سنته أن لا يعصم إلا المرسلين.

٢- بيان أوجه امتياز النبي ﷺ في صفاته[2].

ومعناه أن النبي المبعوث من قبل الله تعالى يحيطه الله تعالى بصفات غائية، ما إن يراها أحدٌ إلا ويعتقد أن صاحبها نبي، يستوي في ذلك أن تكون المسائل حسية كخاتم النبوة الذي اشتهر به النبي محمدﷺ وكان هذا الخاتم في ناحية كتفه الأيسر[3]

وهذا الامتياز الذي يكون لخاتم النبوة فيه إعلان صريح عن كون عصمته لا تسمح له بالوقوع في صغيرة ولا كبيرة، بل ولا كفر أو قبائح لأنها مناقص، وهو كامل

(١) جلال الدين السيوطي، الخصائص النبوية الكبرى، المجلد الأول، ص١٨.

(٢) سلف الحديث عن أوجه امتياز النبي في ذاته، وأبان أهل العلم عن تلك الجوانب طبقاً لما سلف، وهنا ننتقل إلى بيان أوجه امتياز النبي في صفاته لتكتمل النبوة معهم.

(٣) جلال الدين السيوطي، الخصائص النبوية الكبرى، المجلد الأول، ص٤٥، وقد ذكر السيوطي في خاتم النبوة روايات متعددة نقلها عن سيرة ابن هشام، وأسد الغابة وغيرهما، وشغلت لديه الصفحات من ص٥٣إلى ص٦١.

بتكميل الله له، ومن كمله ربه لا يصح أن يسند إليه أو ينسب له وصف يخالف حقيقة ما وصفه به ربه، وأرى أن الغاية هي تكميلية بأقصى ما يمكن من صفات الكمال.

واستدل القاري (بحديث عن أبي هريرة قال، قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: "وآدم بين الروح والجسد"[١]، وبناءً عليه ذُكر امتياز الرسول عن غيره بوصف النبوة في عالم الأرواح قبل خلق الأشباح
وهو وصفٌ خاص له)[٢]

٣- بيان أوجه امتياز النبي ﷺ في تعاليمه

ذكر الشيخ القاري أن كل نبي صادق عن الله تعالى فإن العصمة تكون العلامة المميزة له في تعاليمه، أما لماذا؟ فلأنه (ما من أحد ادعى النبوة إلا وقد ظهر عنه من الجهل والكذب ما يعلمه أدنى من له تمييز[٣]، واستشهد بالحكمة المشهورة ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه)[٤].

ثم إن النبي المبعوث من قبل الله تعالى تظهر في تعاليمه اليقين لأنه مبلغ عن الله والمبلغ عن الله لا يقع في كذب أبداً، وإنما يكون قوله الصدق كله، لأنه مبلغ عن صاحب القول الصادق، قال تعالى:﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب أبواب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، رقم الحديث ٣٦٠٩، ج٦، ص٩.

(٢) راجع للشيخ/ أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٧.

(٣) ذهب علماء الأصول إلى أن هذا ما يعرف بشاهد الحال، ومعناه أن من ادعى النبوة وهو كاذب يظهر على لسانه كل ما يدعو إلى السخافة، ويشهد بكذبه، ويعلن أنه غير صادق في دعواه. راجع للشيخ علي بن محمود بن سلامة الشافعي، شاهد الحال وأثره في الفقه الإسلامي، ص١٢٨، طبعة دار سعادة ١٣١٠هـ.

(٤) الشيخ/ أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٧، ١٠٨.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[1]، ومحل الشاهد أن الله تعالى صادق، وكل نبي مرسل من الله الصادق لابد أن يكون صادقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[2]، ومحل الشاهد أن الصادق في حديثه وقوله على جهة اليقين هو الله سبحانه وتعالى ومن أرسله من رسله.

وبناءً عليه تكون العصمة للنبي في تعاليمه، يدل عليه قوله جل شأنه:﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾[3]، وقال جل شأنه على لسان نبينا المصطفىﷺ ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[4]، شهد القرآن للنبي بأن قوله صدق، وتعاليم الله تعالى له حق.

أضف إلى ما سبق أن العصمة للنبي تكون مانعة له من القول على الله بما لم يقل وإلا وقع عليه من غضب الله ما ينهيه عن نور النبوة، ولم يحدث أبداً أن يختار الله نبياً ثم يقع في معصية، ويدعي عليه ما لم يأمره به[5]، أما لماذا؟

---

(١) سورة النساء، الآية ٨٧.

(٢) سورة النساء، الآية ١٢٢.

(٣) سورة الحاقة، الآية ٤٤.

(٤) سورة يونس، الآية ١٥.

(٥) كل من ادعى النبوة كاذباً بان كذبه على لسانه كالحال مع مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وسجاح الكاهن، بل وغيرهم الذين حفظهم التاريخ باعتبارهم ممن ينكرون عقيدة ختم النبوة فيدخل =

فلأن النبي وهو يبلغ التعاليم إنما يبلغ ما أوحي إليه على وجه يقيني، بحيث يعطي الكتاب له فيما
يتعلق بالشرع، وبناءً عليه تكون التعاليم خاصة بالكتاب الذي أنزل.

٤- بيان أوجه امتياز النبي في شرعه.

ومعناه أن كل نبي يجعل الله له من التكاليف العملية ما يطلق عليه اسم الشرع، ويكون النبي في تبليغه قائماً على بيان الكيفية، يدل عليه قوله تعالى:﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(١).

في نفس الوقت فإن ما يتعلق بامتياز النبي في تعاليمه يقصد به العقيدة على أساس أن جميع الأنبياء يشتركون في العقيدة، وهي القاسم المشترك بين رسل الله تعالى(٢).

فيهم البابية، والبهائية، وأمثالهم. راجع للدكتور/ محمد إبراهيم الجيوشي، البابية والبهائية، القسم الأول، ص٤٥، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، وراجع للأستاذ/ ناظم الدين محمود البيضان، الباب فتى شيراز، ص٧٣، طبعة بيروت ١٩٩٨م.

(١) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٢) راجع للدكتور/ السيد أحمد سويلم علي، الحقائق المشتركة بين رسل الله، رسالة ماجستير في التفسير مخطوط بكلية أصول الدين، القاهرة ١٩٨١م.

أما ما يتعلق بالشريعة فكل نبي يأتي بما يناسب قومه، والنبوة الخاتمة باعتبارها عامة لكل من الإنس والجن فقد جاء التطبيق العملي في الشريعة من خلال الرسول ﷺ نفسه فيقول" صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي" (١)

ولأن القرآن الكريم لم ترد فيه أعداد ركعات الصلوات الخمس، بل استقلت ببيانها السنة المطهرة، فعرفنا أن صلاة الصبح ركعتان، والظهر أربعاً، والعصر كذلك، والمغرب ثلاث ركعات، أما العشاء فهي أربع، وبذا يكون امتياز النبي في شرعه متعلقاً بالكيفية التي تتم من قبلهﷺ.

يقول الشيخ أبو شهبة (القرآن الكريم هو الأصل الأول للدين، والسنة هي الأصل الثاني، ومنزلة السنة من القرآن أنها مبينة وشارحةٌ له تفصل مجمله، وتوضح مُشكله، وتقيد مطلقه، وتخصص عامه وتبسط ما فيه من الإيجاز)(٢).

وفي الحج قوله ﷺ في حجة الوداع " خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ لَعَلِّي لَا أَرَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا "(٣)، كذلك جاء القرآن الكريم بقوله تعالى:﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤)، لكنه لم يبين عدد الصلوات ولا كيفيتها، ولا أوقاتها ولا فرائضها ولا واجباتها من سننها، فجاءت السنة المحمدية فبينت كل ذلك.

---

(١) أخرجه الإمام ابن حبان في صحيح بن حبان، كتاب فرض متابعة الإمام، باب ذكر البيان بأن قوله صلى الله عليه وسلم فأذنا وأقيما أراد، رقم الحديث ٢١٢٨، ج٥، ص٥٠٣.

(٢) الدكتور/ محمد بن محمد أبو شهبة، دفاعٌ عن السنة، ص١٢، الطبعة الثانية بمكتبة السنة بالقاهرة ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

(٣) أخرجه الإمام البيهقي في سننه، كتاب جماع أبواب دخول مكة، باب الإيضاع في وادي محسر، رقم الحديث ٩٥٢٤، ج٥، ص٢٠٤، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

(٤) سورة الروم، الآية ٣١.

أضف إلى ما سبق أن القرآن الكريم في حديثه عن الزكاة، قال تعالى:﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(١)، لكنه لم يبين متى تجب، وأنصبتها، ومقدار ما يخرج منها أو فيها ومن أي شيء تجب فجاءت السنة فبينت ذلك.

روى بن المبارك عن عمران بن حُصين في رده على رجل يُنكر حجية السنة، ويرى أنها لا حاجة بها، فقال له عمران بن حُصين " إِنَّكَ امْرُؤٌ أَحْمَقُ أَتَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الظُّهْرَ أَرْبَعًا، لَا تَجْهَرُ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ، ثُمَّ عَدَّدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَنَحْوَ هَذَا، ثُمَّ قَالَ: أَتَجِدُ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ مُفَسَّرًا، إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَبْهَمَ هَذَا وَإِنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ ذَلِكَ"(٢)

من المؤكد أن امتياز النبي في شرعه وإنما هي حكمة إلهية لأن كل نبي في الأمم السابقة كان يجئ إلى قومه أو عشيرته، وقد يذكر القرآن الكريم النبي وأخونه في قومه، قال تعالى:﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(٣)، وقوله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾(٤).

أما سيدنا محمد ﷺ وهو الخاتم قد جاء لأمم الأرض قاطباً فامتيازه في شرعه إنما هو حقيقة قائمة بما يؤكد أن السنة المطهرة يمكن أن تستقل بحكم شرعي، وقد نبه

(١) سورة البقرة، الآية ٤٣.

(٢) أخرجه الإما القرطبي في جامع بيان العلم وفضله، كتاب كسب طالب العلم المال وما يكفيه من ذلك، باب موضع السنة من الكتاب وبيانها له، رقم الحديث ٢٣٤٨، ج٢، ص١١٩٢، تحقيق/ أبي الأشبال الزهيري، دار بن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٦٥.

(٤) سورة النمل، الآية ٤٥.

إلى ذلك الإمام الشوكاني في قوله(أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، لا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام)[١].

فإذا أخذنا هذا الجانب من الناحية المتعلقة بالعصمة تبين أن النبي الخاتم له امتياز في شرعه من حيث إن السنة قامت على بيانه طبقاً لما سلف، وثبت أن ما يمتاز به النبي في شرعه له وجوه عدة، يدل عليه أن الرسول فيمن أرسل إليهم ليس مشرعاً، إنما هو مبلغ شريعة، ولا يمكن أن يحجز منها، يدل عليه قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٢]، وجه الاستشهاد بالآية الكريمة أن الرسولﷺ في بلاغه عن الله لا يمكن أن يكتم شيئاً لا من التعاليم التي جاءت في الكتاب على لسان ملك الوحي جبريل، ولا ما ألقي إلى النبيﷺ في روعه، وإلا كان كاتماً ما أمره الله تعالى به.

وقد نبه أبو علي القاري إلى أن (الأنبياء معصومون عن الكذب خصوصاً فيما يتعلق بأمر الشرع وتبليغ الأحكام وإرشاد الأمة)[٣]، أما لماذا؟ فالجواب لو وقع منهم كذلك لكان أدعى للناس حتى ينصرفوا عنهم.

غير خاف أن عصمة النبي توجب له في نفسه البلاغ الكامل عن الله سبحانه وتعالى، والتبليغ على الناحية التكليفية فيما يتعلق بالعمليات[٤] لأنه الأسوة التي يجب

---

(١) الإمام محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص١٨٩، تحقيق/ أبي حفص سامي بن العربي الأثري، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٣) أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٤.

(٤) العمليات في الشرع الإسلامي لها تطبيق خاص، ولا يمكن أن يساويه أي تطبيق آخر.

القيام بها على وجه هو الذي جاءت به النصوص الشرعية، في ذات الوقت فإن الشيخ أبو علي القاري وهو يتناول امتياز النبي في شرعه يؤكد على حقيقة أساسية وهي أن النبوة منحصرة في أمرين أحدهما: ما جاء في الكتاب، ويتم عليه التبليغ، وثانيها: ما يقع عليه التطبيق وهو المتمثل في الشرع.

يقول الشيخ أبو علي القاري (إن النبي وهو يبلغ ما أوحي إليه عن طريق الإلهام إنما هو مختص بالعمليات ويتابع الله ورسوله حتى لا يخطئ في التطبيق، وإذا وقع نوع تجوز كالذي يجيء في السهو فإن الله تعالى يُنبهه إليه بحيث يكون السهو والتنبيه أمران يردان على النبي لتعليم أمته[1])، وبالتالي فهذا التطبيق هو المعتبر فيما يتعلق بامتياز النبي في شرعه.

وقد أكد النبيﷺ ذلك في قوله، فعَن أبي هُرَيرة، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم عن الوصال فقالوا: إنك تواصل قال: إني لست مثلكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني"[2]، ومحل الشاهد أن النبيﷺ يكون مع ربه في جميع أحواله ولا ينصرف عنه أبداً بحال من الأحوال.

لقد أكد أهل العلم أن الأخذ عن الرسول في العمليات الواردة في السنة المطهرة هو الواجب الشرعي، يدل عليه قوله تعالى:﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ

(١) أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٦، ١٠٧.

(٢) أخرجه الإمام البزار في البحر الزخار، كتاب مسند أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، باب مسند أبي حمزة أنس بن مالك، رقم الحديث ٩٠٠٨، ج ١٥، ص ٣٩١، تحقيق/ عادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

مِنكُمۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[1]

وقوله ﷺ "نَضَّرَ الله امرءاً، سمِعَ منَّا حديثاً فحفظه حتى يُبَلِّغَه، فُربَّ مُبَلَّغ أحفظُ له من سامع"[2]، وروى الشافعي الحديث برواية اخرى" نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى غَيْرِ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ"[3]

فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، ذَكَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ – أَوْ بِزِمَامِهِ – قَالَ: "أَيُّ يَوْمٍ هَذَا"، فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، قَالَ: "أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ" قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: " فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا" فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: "أَلَيْسَ بِذِي الحِجَّةِ" قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: " فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ"[4].

٥- بيان أوجه امتياز النبيﷺ في معاملاته.

ومعناه أن النبيﷺ يلتزم في بيعه وشرائه، وما يتعلق بالمطعم والمشرب والتداوي وغيرها، يلتزم جانباً واحداً طيلة حياته، وهو جانب الاستقامة، بحيث لا يقع في سرف أو إمساك لأن السرف فعل السفهاء والامساك فعل البخلاء، والنبي ليس واحداً من

---

(١) سورة الحشر، الآية ٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، كتاب ومن مسند بني هاشم، باب مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، رقم الحديث ٤١٥٧، ج٤، ص ١٦٢.

(٣) الإمام الشافعي، المسند، كتاب فضائل قريش وغيرهم وأبواب متفرقة، باب النصيحة، ج٤، رقم الحديث ١٨٠٦، ص٦٨، تحقيق/ ماهر ياسين فحل، شركة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ "رب مبلغ أوعى من سامع"، رقم الحديث ٦٧، ج١، ص ٢٤.

هؤلاء أبداً، أما لماذا؟ فلأن الله تعالى عصم عقله فلا يقبل الوساوس، ولا يصلح معه الحرص على متطلبات الحياة الدنيا لأنه يكون مشغولاً بالله، وقد وضع في حسبانه أن الله تعالى كفيله.

عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ:" قَرَأْتُ أَحَدًا وَسَبْعِينَ كِتَابًا , فَوَجَدْتُ فِي جَمِيعِهَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُعْطِ جَمِيعَ النَّاسِ , مِنْ بَدْءِ الدُّنْيَا إِلَى انْقِضَائِهَا مِنَ الْعَقْلِ فِي جَنْبِ عَقْلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , إِلَّا كَحَبَّةِ رَمْلٍ مِنْ بَيْنَ جَمِيعِ رِمَالِ الدُّنْيَا , وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْجَحُ النَّاسِ عَقْلًا وَأَفْضَلُهُمْ رَأْيًا" [1] ، ومحل الشاهد أن عقل النبي فيه الرجاحة التي لا يمكن أن تميل، وبالتالي تكون معاملاته وتعاملاته كلها على أكمل ما يكون وأوفاها، يدل عليه أن الله تعالى عصم رسولهﷺ منذ ولد وأنه أفنى شبابه على نفس وتيرة ما ولد عليه وقد شهد له أهل مكة بأنه ما جربوا عليه شيئاً يعاب به، وكانوا يصفونه بالصادق الأمين.

أخرج أبو نعيم عن علي قال: قيل للنبيﷺ: هل عبدت وثناً قط؟ قال "لا" قالوا: هل شربت خمراً قط؟ قال:" لا وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان"[2] ، ومحل الشاهد أن الرسولﷺ قد عصمه الله تعالى مذ ولد وظلت عصمته له حتى بلغ الرسالة، وفي ذات الوقت لم تنقطع تلك العصمة حتى لقى ربه تاركاً دار الدنيا.

ونقل أهل السير أن رسول اللهﷺ غضبت عليه عماته يوماً وجعلنا يقلنا له(إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا وجعلن يقلن: يا محمد: ما تريد أن تحضر

(١) أخرجه الإمام الآجري البغدادي في الشريعة، كتاب الإيمان والتصديق بأن الجنة والنار مخلوقتان، باب صفة خلق رسول اللهﷺ وأخلاقه الحميدة، رقم الحديث ١٠٢٥، ج ٣، ص ١٥١٦، تحقيق الدكتور/ عبد الله بن عمر بن سليمان، دار الوطن الرياض– السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م

(٢) الإمام السيوطي، الخصائص الكبرى، ص٢٠٧.

لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً[١]، فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً فقلن عماته: ما دهاك؟ قال:" إني أخشى أن يكون بي لمم"، فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟ قال: " إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجلٌ أبيض طويل يصيح بي: وراءك يا محمد لا تمسه"، قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ")[٢]

وفي ذات الوقت فإن معاملات الرسولﷺ في حياته منذ ولد حتى لقي ربه فيها كل امتياز يتعلق بالسلوكيات، يدل عليه ما روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:" الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ، جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ "[٣].

لقد تبين امتياز الرسول في تعاملاته اليومية وسلوكياته الحياتية فلا باع ولا اشترى إلا على هدى من ربه ورعاية إلهية، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ:" أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أُمِرَ بِالهِجْرَةِ فَهَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ، فَمَكَثَ بِهَا عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ تُوُفِّيَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[٤]

من هنا بان أن عصمة الله للنبي في تعاملاته لم تُسلمه إلا إلى الخير، وابعدته كل البعد عن سلوك ما لا يرضاه الله عز وجل، لقد كانت تلك التعاملات اليومية،

---

(١) محل الشاهد هنا أن عمات النبيﷺ كن يردن له وهو صغير أن يتوافق مع أقرانه وأعمامه وكبار قومه في الذهاب إلى أعيادهم أو الاشتراك في مناسباتهم خشية أن يكبر فيصير عكوفاً لا يجد من يقارنه، ولم يكن يعلمن أنه مختار من الله للرسالة.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٢٢١، والسيوطي، الخصائص الكبرى، ص٢٠٧.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، باب مسند أبي هريرة رضي الله عنه، رقم الحديث ٩٦٥٦، ج١٥، ص٤١٠.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث ٣٨٥١، ج٥، ص ٤٥.

والمعاملات اللحظية مقرونة بجبريل عليه السلام فما يفعل الرسول شيئاً إلا ومعه أمين الوحي يوجهه ويزكي، أخرج أبو نعيم أن رسـول الله ﷺ كان في كل أحواله يأتيه جبريل الأمين ويلقى عليه السلام وهو يرد على جبريل سلامه وكان جبريل قد علمه التحية[1].

ذكرت أن النبي كان له امتياز خاص في تعاملاته اليومية بدءاً من التســـليم والسلام والتمهيد للعلاقات السوية، حتى صار ذلك من صفاته وعرف الجميع أنها شيم لا تكون إلا لمن هو في حفظ الرب وعنايته.

(١) السيوطي، الخصائص الكبرى، ص٢٢٥.

٦- بيان أوجه امتياز النبي ﷺ في علاقاته.

ومعناه أن النبيﷺ لم يكن معزولاً عن قومه وإنما كان واحداً فيهم يتعامل معهم ويتعايش في كل ما هو بعيدٌ عن المحرمات وكانﷺ يمدُ يديه إلى كل من يعرفه حتى صـــار الحجر والشـــجر كأنها جميعاً قد مدت يديها إليه، أخرج الترمذي عن جابر بن سمرة قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ بِمَكَّةَ حَجَرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ لَيَالِيَ بُعِثْتُ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ"(١)

فإذا كان الحجر قد بدت منه تعاملات مع الرسولﷺ فما بال التعاملات الإنسانية بل والنباتية أيضاً، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لما أوحي إلي أو نبئت أو كلمة نحوها جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليكم يا رسول اللَّهِ"(٢)

أخلص مما ســلف إلى أن امتياز الرســول ﷺ في عَلاقاته كانت على أجمل ما يكون، وصدق فيه أنه الرحمة المهداة، وقد شهدت له زوجه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها حين أخبرها بما رأى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيﷺ قال لخديجة" إِنِّي أَسْمَعُ صَوْتًا، وَأَرَى ضَوْءًا، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جنن، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَفْعَلَ بِكَ ذَاكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللهِ. ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنْ يَكُنْ

(١) أخرجه الإمام الترمذي في الجامع الكبير، كتاب أبواب المناقب، باب في آيات نبوة النبي صـــلى الله عليه وسلم وما قد خصه الله عز وجل به، رقم الحديث ٣٦٢٤، ج٦، ص٢٣.

(٢) أخرجه الإمام البزار في البحر الزخار، باب مسند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم الحديث ١٤٠، ج١٨، ص١٦٤، تحقيق/ صـــبري عبد الخالق الشـــافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

صَادِقًا فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَى، فإِنْ يُبْعَثْ، وَأَنَا حَيٌّ فسَأُعَزِّرُهُ، وَأَنْصُرُهُ، وَأُعِينُهُ"(١).

لقد كان الرسولﷺ في عَلاقاته على أجمل ما يكون وأوفى قبل البعثة، وفي ظلها فلم يذكر التاريخ أنه خاصم أحداً، أو قطع وداً، أو قسى على صغير، أو هضم حق كبير، وإنما كان على أحسن ما يكون سواءً أكان في طفولته أم في شبابه، لقد كان شغله الشاغل هو طاعة الله، والتمسك به، ومع هذا كان حريصاً على ما يعرف بلغة اليوم باسم البروتوكول.

أخرج الطبراني عن عمار قال: كان أبو طالب يصنع الطعام لأهل مكة، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل لم يجلس حتى يأخذ شيئاً فيضعه تحته، فقال أبو طالب: إن ابن أخي ليحس بكرامة"(٢)

وأخرج ابن سعد عن عطاء عن ابن عباس قال: كان بنو أبي طالب يصبحون غُمصاً رمصاً(٣)، ويصبح محمدﷺ صقيلاً دهيناً، قال: وكان أبو طالب يقرب إلى الصبيان بصفحتهم فيجلسون وينتهبون ويكف رسول الله ﷺ يده لا ينتهب معهم، فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حده"(٤)، وهذا دليلٌ على علو عَلاقاته وكيفية محافظته على ذاته.

---

(١) أخرجه الإمام الطبراني في المعجم الكبير، كتاب مسند النساء، باب مناقب خديجة رضي الله عنها، رقم الحديث ٢٦، ج ٢٣، ص ١٥، تحقيق/ حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.

(٢) الإمام السيوطي، الخصائص الكبرى، ص ١٩٥.

(٣) الغمص الرمص هو القذى الأبيض الذي يكون في العين فإذا كان يابساً فهو الغمس، وإن كان رطباً فهو الرمس والمعنى أن هؤلاء الصبية أن أصبحوا عن نوم كانت عيونهم على ما ذكرت.

(٤) الإمام السيوطي، الخصائص الكبرى، ص١٩٤.

بل أخرج ابن عســـاكر عن طريق مجاهد قال: كان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا(١)، فكان إذا أراد أن يغديهم أو يعشيهم قال: كما أنتم حتى يحضر ابني فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، وإن كان لبناً شرب أولهم، ثم يتناول القعب العيالُ فيشربون منه فيروون عن آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعباً وحده فيقول إنك لمبارك، وكان الصبيان يصبحون رمصاً شعثاً، ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً كحيلاً" (٢).

وعن أم أيمن(٣) قالت ما رأيت رسول الله ﷺ شكا جوعاً قط ولا عطشاً، وكان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة، فربما عرضنا عليه الغذاء، فيقول:" لا أريد أنا شـــبعان"(٤)، من جملة ما ســـبق تبين أن النبي ﷺ يكون له امتياز في عَلاقاته المجتمعية حتى يكون عنصراً فعالاً.

ونقل عن أبي القاري ما ذكره القاضـي عبيد الله بن عمر الدبوسـي (ت:٤٣٠هـ) (أن أفعال النبي عن قصد أربعة أقسام، واجب، مستحب، مباح، وزلة، فأما ما كان يقع من غير قصـــد كما يكون من النائم والمخطئ ونحوهما فلا عبرة بها، لأنها غير داخلة تحت الخطاب، ثم الزلة لا تخلو عن القرآن بيان أنها زلة إما من الفاعل من نفســـه، كقول موسى حين قتل القبطي بوكزته هذا من عمل الشيطان، وإما من الله سبحانه كما

(١) غاية الروايات بيان بركة الطعام وتكثيره عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) السيوطي، الخصائص الكبرى، ص١٩٤، ١٩٥.

(٣) أم أيمن: مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته، واسمها بركة، وهي حبشية فأعتقها عبد الله أَبُو رَسُـول اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، وأسـلمت أول الإسـلام، وهاجرت إلى الحبشـة وإلى المدينة، وَبَايَعْتُ رَسُـول اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، وتكنى أم أيمن، بابنها أيمن ابن عبيد. أبو الحسـن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد الشـيباني، عز الدين ابن الأثير، أسـد الغابة، ج٦، ص٣٠٣، دار الفكر بيروت ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

(٤) الإمام السيوطي، الخصائص الكبرى، ص١٩٥.

قال الله تعالى في حق آدم عليه السلام: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾(١)

مع أن زلة آدم كانت قبل نبوته، لقوله تعالى:﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾(٢)، وإذا لم تخل الزلة عن البيان لم يشكل على أحد أنها غير صالحة للاقتداء بها)(٣)، لأن الله تعالى لم يأمرنا إلا بالاقتداء الحسن لأنه المزكى من الله سبحانه وتعالى.

(١) سورة طه، الآية١٢١.

(٢) سورة طه، الآية ١٢٢.

(٣) أبو علي القاري، شرح الفقه الأكبر، ص١٠٤.

الخاتمة

من المؤكد أن الخاتمة لأي بحث علمي إنما هي رصـــد لأبرز نتائجه، واهم توصـــيات البحث، ومقترحاته، حينئذ تتكامل أجزاءه البحث من الناحية المناهجية، وسأحاول الإلمام بتلك الجوانب من خلال ما يلي:-

أ- أهم النتائج

١- يعتبر الحديث عن رجال الماتريدية مما يغطي مثيله في الفكر الأشـــعري، وربما ينتصـب مدافعاً عنه مقدماً رؤيته على أسـاس المشـاركة في أنهما من أهل السـنة والجماعة، وما دام كلٌ منهما يمثل طرف أهل الســـنة والجماعة، فمن المؤكد أن الحديث عن أي منهما إنما هو حديث عن الآخر، وذلك مما يدعم الفكر ويعضـد أداء الجماعة.

٢- إن الفكر الماتريدي له موضوعاته التي قد يوجد لها نوعٌ من الاستقلال في العرض أو طريقة التناول، وليس أدل على ذلك من اتفاقهم على أن صـــفات الله تعالى تنقســم إلى قســمين، أحدهما الصــفات الذاتية، وثانيهما الصــفات الفعلية، مع أن الأشاعرة يقدمون تقسيمات بعضـها مشـهور وهو التقسـيم الرباعي" ١- نفسـية ٢- ســـلبية ٣- معاني ٤- معنوية"، ومع هذا يمكن إعادة هذه الأربعة أو الرجوع بها إلى قسمين لاعتبارات صحت عند شيوخ المذهب ومن جاء عنده.

٣- إن أبا علي القاري مع أنه ماتريدي النزعة والأصول إلا أنه صاحب منهج اختياري أو انتخابي إذا صـــح التعبير بدليل أنه في حياته لما ترك البلاد التي نشـــأ فيها وانتقل لغيرها اختار بلاد الحرمين الشـــريفين بينما اختار غيره بلاد الهند أو بلاد الغرب أو غيرها، واستعمل الشيخ القاري هذا المنهج في حياته العلمية، فكان بذلك مقعداً للمواطنة الدائمة والوقتية، وكيف يمكن أن تتحول الوقتية إلى دائمة، فبلاد المسـلمين لا تعرف سـوى أن ديانة المسـلم هي موطنه، وبالتالي فحقوق الإسـلام بينهم متبادلة، وهو الذي نهض إليه الشيخ القاري وعزز موقفه.

٤- إن الشيخ القاري فيما يتعلق بحياته كانت قصة فصوله مترابطة رباط العقيدة التي انعقد أمرها في قلبه وعقله، ووجدانه، وبالتالي حاول الشيخ القاري أن يستعرض إمكانياته فيها مستفيداً مما سجله الإمام أبو حنيفة في كتابه الفقه الأكبر، إذ قام الشيخ القاري على شرحه، وعرض وجهة نظره، ودافع عنها دفاعاً يحسب له.

٥- إن الشيخ القاري قد وضع في حسبانه ضرورة عرض قضايا العقيدة من خلال ضوابط الفكر الإنساني حتى إذا جاء عصمة الأنبياء قدم لها مفهوماً يتفق مع امكانياته، وعرض جوانبها طبقاً لثقافته، فلم يتقيد بمذهب أو يرتبط بدليل حتى يساق إليه رغماً عنه وإنما قدم المثال العاقل فيما يتعلق بعرض قضايا العقيدة ومناقشة مسائل النبوات.

٦- إن الشيخ القاري بعد أن وضع مفهوماً محدداً لعصمة الأنبياء، أتبعه بتفسيرات مطولة يتم من خلالها عملية الإدخال تارة، والإخراج أخرى، وتتمثل عملية الإدخال الفكرية في عرض كل جوانب عصمة الأنبياء، وكيف أنها مستمرة، ولم يقع لها كسر أو خدش، وهذا في حد ذاته دال على أن بناء عصمة الأنبياء منهج قويم مستقيم.

٧- إن أبا علي القاري لم يجعل الأنبياء مقدسين، وإنما وصفهم بأنهم معصومون، والفرق بين المقدس والمعصوم واضح جداً، إذا قارن بين الإسلام وفكر الآخر عند الحديث عن المفاهيم والدلالات المرتبطة بعصمة الأنبياء.

٨- اعتقد أبو علي القاري أن إرسال الرسل من مقتضى حكمة الباري، وهذا أمرٌ استقرت عليه النصوص، وأبو علي القاري شرح هذه المسألة بطريقة تجعل القارئ لها متمسكاً بها قادراً على الدفاع عنها.

٩- إن عصمة الأنبياء لم توجد خالية من الأسانيد وإنما جاءت مقترنة بها، ومن كان هذا شأنه فلابد أن يكون رسولاً صادقاً عن الله وإلا فقد صارت تجارةً بوار، وحكاية خسار، وأبو علي القاري لم يشأ لنفسه أن يكون كذلك بدليل أنه غاص في البحار

الكلامية المتلاطمة، ثم ألقاها جميعاً في سلة المهملات، وأخذ منها ما لا يمكن احتباسه إلا عنده، ولذا كانت النتائج مبهرة(١).

١٠- إن أبا علي القاري وهو يضع اللمسات الأخيرة لمذهبه الكلامي لم يفته الاستعانة ببعض الكتابات الحديثة التي رأى أصحابها ضرورة مساندة القاري لتمر المسألة بسلام، وليتهم نظروا إلى الحقيقة بدل أن ينظروا إلى طالب الحقيقة.

١١- إن الشيخ القاري وهو يدور بين المتكلمين وجد أن زعماء الفلسفة الإسلامية قد عَرفوا التصنيف من الناحية الاصطلاحية، ثم ازادوا عليه مفهوماً يؤدي إلى الإلزام تارة والالتزام أخرى، وبناءً عليه يكون الشيخ أبو علي القاري بعيداً عن مغاضبة الرب قريباً من مصادر النور الإلهي بعيداً عن الشياطين أفعال الحواه.

١٢- إن التصنيف الذي وضعه أبو حامد الغزالي في تصنيف العلوم وجد له رجع صدى لدى الشيخ القاري الذي أكد أكثر من مرة أن هذا الجانب يمثل أهمية كبرى، وينصح الأغرار ألا يدخلوا إليه مستهترين فيه(٢)، فكان أبو علي القاري يكشف عن عَلاقة وطيدة بين الفكر الأشعري والفكر الماتريدي، ويبين في ذات الوقت حرص الطرفين على الاستفادة المتبادلة والتزكية المستمرة.

١٣- إن أبا علي القاري وهو يعلم يقيناً أن الأنبياء معصومون بعصمة الله إياهم ومن ثم فهو يقتبس مما لم يهرب منه آدم عليه السلام وهو إطار النسيان، وفي ذلك سعة صدر لدى الشيخ القاري حتى إذا كانت هناك أسئلة أو اعتراضات على موقف الأشاعرة من عصمة الأنبياء، وبخاصة في الكبائر أسرع الشيخ القاري إلى فصل العصمة عن الكبائر، وبيان أن الكبيرة تحتها ما دون الكبيرة وفوقها ما هو

---

(١) يدل على الإبهار مجيء أدوات النداء سابقة عن المنادى، منها قوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ سورة الإنسان، الآية١.

(٢) الشيخ نور الدين الصابوني، الكفاية في البداية، وبين من خلالها أن الأنبياء رسل مهمتهم البشارة والتزام النقل الوارد عن الله تعالى، وتفهيمه بمنهج الفكر الصحيح.

أعلى من الكبيرة، وبين الفوق والتحت تبدو وجهة نظر الماتريدي مصححة الموقف، مؤكدة أن الأنبياء والمرسلين ليسوا كأحاد الناس عندما تواجههم المعاصي، وإنما تحصل لهم إعانة إلهية على هجر المعاصي، والابتعاد عنها، وبذلك يكون الشيخ القاري قد وضع في حسبانه الأفعال التي يأتيها الإنسان بقصد منه لا على سبيل العمد، وإنما على سبيل من السبل المشهورة، ومن أبرزها، الخطأ، والنسيان، وترك الأولى، وهو بهذا يباعد بين مقام النبوة السامي، وبين ما ليسوا أنبياء ومقاماتهم المتباينة وردود أفعالهم عندما تلاقيهم الصغائر أو يلاقونها.

١٤- إن أبا علي القاري استحدث مفردات كلامية اقتبس جانباً منها مما تركه سلفه، ثم أضاف إليها ما اقتبسه من ثقافته ومعايشته، ثم أضاف إليها رؤاه الشخصية القائمة على أصول عقدية، وبهذا يجمع الرجل بين عناصر لم تكن متآلفة في المقدمات لكنه جعلها متوافقة في النتائج وليست متخالفة.

١٥- إن أبا علي القاري مهد في شرحه على الفقه الأكبر للعديد من القضايا المشهورة في الفكر الإسلامي، وعالجها معالجة جيدة، بحيث تبدو معالجته للقضايا المطروحة كأنها صياغة اليوم لقواعد المنهج منذ تأسيسه الأول في نهاية القرن الأول الهجري، وهو بهذا يؤاخي بين الأفكار، ويقدم نمطاً جديداً لها في المعالجة.

ب- أبرز التوصيات

١- إن المذهب الماتريدي برزت لأفراده اصطلاحات متنوعة، قلما توجد إلا لدى أفراده، ولها أثرٌ بالغ الأهمية فيما يتعلق بالدراسات الكلامية، ولذا فإن الدراسة توصي بضرورة الاستفادة من هذا التراث على نطاق أوسع واكتشاف ما فيه من انفرادات تمثل نوعاً من الارتقاء الفكري، رغم أن البدايات لتلك الإنفرادات قد توحي بأنها أفكار إشراقية مع أن الإشراق عملٌ دقيق قائمٌ على الرياضة والمكاشفة، ولا يكون حظ أحد منه إلا بقدر رياضته الروحية واجتهاداته في تلك المسألة.

٢- إن علماء الماتريدية يمثلون اتجاهاً عاماً ويمكنهم الوقوف على بداية السباق مع أي فكر آخر، ومن المؤكد أنهم قد يصلون إلى النهاية قبل أن تنطلق صافرة الحكم، ولذا يجب الاهتمام بهم ومتابعة أفكارهم.

٣- إن هناك نوعاً من الترابط الوثيق بين أفكار أتباع "أبي حنيفة" حتى إنك قد تقرأ رسالة في علم الكلام لأحد المتقدمين في الزمن من المذهب الماتريدي، ثم تحاول القراءة مرة أخرى لمعاصر لا تجد بينهما فارقاً كبيراً، بل هو فارق ضيق، ومن الدلائل عليه أن ما سجله بديع الزمان "سعيد النورسي" أحد رجال المذهب الحنفي في الفروع تجده يقترب كثيراً مما سجله "خضر بك" في نونيته المتعلقة بمباحث علم التوحيد، ورغم ما بينهما من فوارق زمانية إلا أنك تجد الوسائط من رجال المذهب قد انغمسوا في الجديد الذي لم يكونوا قد وفقوا إليه، ولم يكونوا قد تعرفوا عليه، ومع هذا تجدهم مهرةٌ فيه شعارهم قوله تعالى:﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾(١)

٤- حرص المفكر المسلم على متابعة ماتريدية بخاري، وماتريدية سمرقند، ووجد أن كلاً منهما يدعوه إلى استمرار المواصلة ويعدونه فوائد لم تكن في حسبانه من قبل، وآية ذلك أن عمليات الاستدعاء التي يقوم بها السلف قبل الخلف إنما هي جسر من جسور المعرفة يتم طيه وفرده عند الحاجة، أو يوم يدعو الداعي للجهاد، ولهذا أرى ضرورة الإمساك بتلابيب المذهب الماتريدي والتعلق بآدابه، وفي ذلك خيرٌ من أن يوجه المؤمن عقله وأدواته إلى شخص واحد إن هلك هلكت جميع الأفكار، وإن بز بزت جميع الأفكار، وبين الهلاك والبز شريحة رقيقة صنعت من قول الله تعالى:

(١) سورة الأعراف، الآية ٨٩.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

٥- ضرورة الاهتمام بالتراث الماتريدي المخطوط، لأن الباحث متى اطلع على المخطوط واستهواه فإن الأفكار التي تكون فيه يحدث لها عملية تسابق نوعي لتبرز إلى الضيف الذي عاش بينهم ولم يلبث قليلاً حتى يتخلى عنهم، وهذا الضيف هو العقل الذي منحه الله تعالى حرية الالتقاء بالإنسان الذي ميزه الله على كثير من خلقه، وجعله مسؤولاً عن تبليغ الرسالة.

ج- المقترحات

١- صفات المعاني في الفكر الماتريدي دراسة تحليلية.

٢- التقسيمات العامة للصفات بين الأشاعرة والماتريدية.

٣- أفعال الله وأفعال الإنسان في الفكر الماتريدي دراسة توافقية.

٤- معيار قبول الأدلة في الفكر الماتريدي على عقيدة الألوهية.

٥- الفوارق الدقيقة بين خوارق العادات في الفكر الماتريدي.

٦- أحكام الصفات في الفكر الأشعري دراسة تحليلية.

٧- شروح العقائد النسفية بين القبول والرد.

(١) سورة النمل، الآية ٨٨.

أهم المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم وعلومه:

(١) القرآن الكريم.

- زهران- الشيخ محمد نور الدين بن محمد.

(٢) نظرات في آيات القرآن الكريم، طبعة دار سعادة ١٣١٥هـ.

ثانياً: السنة النبوية المطهرة وعلومها:

- ابن حبان- الإمام محمد بن حبان بن أحمد بن حبان

(٣) الإحسان في تقريب صحيح بن حبان، حققه وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

- ابن حنبل- الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد

(٤) المسند، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

- ابن ماجة- الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني

(٥) السنن، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية. وقال الألباني حديث صحيح.

- البزار- الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق

(٦) البحر الزخار، تحقيق/ صبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

- البخاري- الإمام محمد بن إسماعيل أبو عبد الله

(٧) الجامع الصحيح، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

- البيهقي- الإمام أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني

(٨) الســـنن الكبرى، تحقيق/ محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

- البغدادي- الإمام أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري

(٩) الشريعة، تحقيق الدكتور/ عبد الله بن عمر بن سليمان، دار الوطن الرياض- السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

- الترمذي- الإمام محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك

(١٠) الســـنن، تحقيق/ إبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصـــطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

- الحاكم- الإمام أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري

(١١) المستدرك على الصحيحين، تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

- الشافعي- الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان

(١٢) المسند، تحقيق/ ماهر ياسين فحل، شركة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

- القرطبي- الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر

(١٣) جامع بيان العلم وفضـــله، تحقيق/ أبي الأشـــبال الزهيري، دار بن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

- الطبراني- الإمام سليمان بن أحمد بن أيوب

(١٤) المعجم الكبير، تحقيق/ حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

- مسلم- الإمام ابن الحجاج أبو الحسن القشيري

(١٥) المسند الصحيح، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت.

ثالثاً: المعاجم العربية والتراجم:

- ابن الأثير– أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني.

(١٦) أسد الغابة، دار الفكر بيروت ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

- ابن بطوطة– محمد بن عبد الله بن محمد.

(١٧) رحلة ابن بطوطة، دار الشرق العربي.

- البغدادي– اسماعيل باشا

(١٨) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الفكر ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

- الجرجاني– السيد الشريف الجرجاني.

(١٩) التعريفات، طبعة البابي الحلبي ١٩٣٨م، ١٣٥٧هـ.

- الزركلي– خير الدين

(٢٠) الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر٢٠٠٢م.

- عبد الباقي– الأستاذ محمد فؤاد

(٢١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، طبعة مكتبة الغزالي، دمشق ١٩٤٥م.

- الفارابي– أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري

(٢٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

- كحالة– عمر رضا

(٢٣) معجم المؤلفين "تراجم مصنفي الكتب العربية"، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر، لبنان.

رابعاً: المصادر العامة:

- أبو حنيفة– الإمام النعمان بن ثابت

(٢٤) الفقه الأكبر، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند.

- أبو الخير- الشيخ عبد الله مرداد

(٢٥) المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، تحقيق/ محمد سعيد العامودي وأحمد علي، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

- ابن الهمام- الكمال بن أبي الشريف

(٢٦) المسايرة في علم الكلام والعقائد التوحيدية المنجية في الآخرة، مراجعة الأصول للشيخ محمد محي عبد الحميد، طبعة صبيح الأولى بدون تاريخ.

(٢٧) المسامرة في شرح المسايرة في علم الكلام مع حاشية زين الدين قاسم على المسايرة، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثانية ١٣٤٧هـ.

- أبو منصور- محمد بن محمد الماتريدي

(٢٨) شرح الفقه الأكبر، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن ١٣٢١هـ.

- أبو شهبة – الدكتور محمد بن محمد

(٢٩) دفاعٌ عن السنة، الطبعة الثانية بمكتبة السنة بالقاهرة ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

- البزدوي- الإمام أبو اليسر محمد

(٣٠) أصول الدين، تحقيق الدكتور/ هانز بيتر لنس، ضبط وتعليق الدكتور/ أحمد حجازي السقا، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

- البيضان- الأستاذ ناظم الدين محمود

(٣١) الباب فتى شيراز، طبعة بيروت ١٩٩٨م.

- بهاء الدين- محي الدين محمد

(٣٢) القول الفصل شرح الفقه الأكبر، مكتبة الحقيقة شارع دار الشفقة، استانبول، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، الطبعة الأولى.

- الجيوشي- الدكتور محمد إبراهيم

(٣٣) البابية والبهائية، القسم الأول، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

- الجشتي- الشيخ محمد عبد الحليم عبد الرحيم

(٣٤) البضاعة المزجاة لمن يطالع المرقاة في شرح المشكاة، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م، الناشر: مكتبة الإمدادية باكستان.

- الحنفي- الشيخ رمضان بن محمد

(٣٥) المجموعة السَنية على شرح العقائد النسفية، تحقيق/ مرعي حسن الرشيد، دار نور الصباح مؤسسة محمد نوري.

- الدمشقي- ابن أبي العز

(٣٦) شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط وعبد الله التركي، طبعة مؤسسة الرسالة.

- زادة- الشيخ عبد الرحيم بن علي

(٣٧) نَظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل الذي وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية في العقائد، الفريدة الثالثة والثلاثون، المطبعة الأدبية بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣١٧هـ.

- السباعي- العلامة محمد بن أبي السعود صالح

(٣٨) حاشية السباعي على شرح الخريدة البهية للعلامة الدردير،

- السيوطي- العلامة جلال الدين

(٣٩) الخصائص الكبرى، تحقيق/ حمزة النشرتي وآخرين، طبعة دار الصحوة، بدون تاريخ.

- السبكي- الشيخ تقي الدين

(٤٠) التعظيم والمنه في تحقيق لتؤمنن به ولتنصرنه، تحقيق/ عبد السميع محمود حسن، طبعة القاهرة.

- الشوكاني- الإمام محمد بن علي

(٤١)البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع حواشيه/ محمد أحمد عبد العزيز سالم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

(٤٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق/ أبي حفص سامي بن العربي الأثري، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

- الشافعي- الشيخ علي بن محمود بن سلامة

(٤٣) شاهد الحال وأثره في الفقه الإسلامي، طبعة دار سعادة ١٣١٠هـ.

- الصابوني- الشيخ نور الدين

(٤٤) الكفاية في الهداية، تحقيق/ محمد آروتشي، مركز البحوث الإسلامية، إستانبول سلسلة عيون التراث الإسلامي رقم ٩، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

- علي- الدكتور السيد أحمد سويلم

(٤٥) الحقائق المشتركة بين رسل الله، رسالة ماجستير في التفسير مخطوط بكلية أصول الدين، القاهرة ١٩٨١م.

- الغالي- بلقاسم بن حسن

(٤٦) أبو منصور الماتريدي، حياته وآراؤه العقدية، طبع بالمطابع الموحدة تونس، دار التركي للنشر ١٩٨٩م.

- الغزالي- الإمام

(٤٧) الاقتصاد في الاعتقاد، مكتبة الحلبي الطبعة الأخيرة.

- القاري- الإمام علي بن سلطان محمد

(٤٨) مرقاة المفاتيح شـــرح مشـــكاة المصـــابيح، تحقيق/ جمال عيتاني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

(٤٩) الأسـرار المرفوعة في الأخبار الموضـوعة المعروف بالموضـوعات الكبرى، حققه وعلق عليه وشـــرحه/ محمد بن لطفي الصـــباغ، المكتب الإســـلامي بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

(٥٠) المنح الفكرية في شـــرح المقدمة الجزرية، تحقيق/ أســـامة عطايا، مراجعة الدكتور/ أحمد شكري، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

(٥١) الاستدعاء في الاستسقاء، المكتب الإسلامي، دار عمار ١٩٩٠م.

(٥٢) شـــم العوارض في ذم الروافض، رســـالة موجودة ضـــمن مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٥٣) شـرح الفقه الأكبر، خرج آياته وأحاديثه وعلق/ علي محمد مندل، طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

(٥٤) ضـــوء المعالي على منظومة بدء الأمالي، طبعة دار البيروني الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

(٥٥) فتح باب العناية بشـرح النُقايَةُ، قدم له سـماحة المفيُ الشـيخ الميس، اعتنى بـه/ محمد نزار تميم- هيثم نزار تميم، شـــركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، بيروت.

- قوتلالي- الشيخ خليل إبراهيم

(٥٦) الإمـام علي القـاري وأثره في علم الحـديـث، الطبعـة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، دار البشائر الإسلامية بيروت، لبنان.

- القونوي- العلامة جمال الدين محمود بن أحمد بن مسعود الحنفي

(٥٧) مخطوط بعنوان القلايد في شرح العقائد، لوحة٤٩، المملكة العربية السعودية مكتبة الحرم المكي الشريف ١١١٩هـ، تصوير/ محمد عبد العزيز سيد ١٤٠٥هـ.

- المغنيساوي- الشيخ أبو المنتهى أحمد بن محمد

(٥٨) شرح الفقه الأكبر، طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند بحيدر آباد الدكن، ١٣٢١هـ.

- الماوردي- الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب

(٥٩) الأحكام السلطانية، تحقيق الدكتور/ عبد الرحمن عميرة، طبعة دار الاعتصام بالقاهرة.

- المكي- عبد الملك العصامي

(٦٠) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المكتبة السلفية، القاهرة ١٣٧٩هـ.

- المحبي- محمد أمين بن فضل الله

(٦١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، الطبعة الأولى، ١٢٨٤هـ.

- النسفي- الإمام أبو المعين

(٦٢)تبصرة الأدلة في أصول الدين، تحقيق/ محمد الأنور حامد عيسى، المكتبة الأزهرية للتراث والجزيرة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١١م.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث: ٣٦٩
مقدمة ٣٧٣
أولاً: أسباب اختيار الموضوع..... ٣٧٤
ثانياً: منهجي في البحث..... ٣٧٥
ثالثاً: أهم المشكلات البحثية..... ٣٧٦
رابعاً: مكونات البحث..... ٣٧٦
الفصل الأول: أبو علي القاري حياته وظروف عصره..... ٣٧٧
تمهيد: ٣٧٧
أولاً: الاسم. ٣٧٧
ثانياً: الولادة والنشأة..... ٣٨١
ثالثاً: طلبه العلم..... ٣٨٤
رابعاً: أثر ظروف عصره عليه ٣٨٥
خامساً: أبرز مؤلفاته..... ٣٩٢
سادساً: وفاته..... ٣٩٤
الفصل الثاني: العصمة مفهومها، وكيفيتها، ووقتها، وموضوعاتُها ٣٩٥
أولاً: مفهوم العصمة..... ٣٩٥
ثانياً: كيفية العصمة: ٤٠٢

ثالثاً: وقت العصمة..... ٤٠٩
رابعاً: موضوعاتها()..... ٤١٩
الفصل الثالث: دلائل العصمة، وغاياتها..... ٤٢٨
أولاً: دلائل العصمة..... ٤٢٨
ثانياً: الغايات من العصمة..... ٤٣٤
الخاتمة..... ٤٥١
أهم المصادر والمراجع..... ٤٥٧
فهرس الموضوعات ٤٦٥